صهيل المدينة

صهيل المدينة

رواية

منى النابلسي

صهيل المدينة

اسم الكاتبة: منى النابلسي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 1639
الترقيم الدولي: 8 – 53 – 6610 – 977 – 978

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

من تنفّس في صدره صبح القدس،
سيأتيها،
وإن كان عليه أن ينفذ إليها من عين إبرة.

منى النابلسي

الفصل الأول

هطل الوطن

مطرقةً تنظر إلى كفيّها بصمت، وفي قلبها ضجيجٌ صاخب، تراودها الأفكار عن أحزانها، فيبدو لها العمر مجدباً، وتلتفت إلى زوجها المتشبّث بنافذة الطائرة كطفل يغريه الأفق بالحلم.

يباغتها الحزن العميق، وكأنّما تصاعد مع أنفاسها ليتربّع في عينيها، وتقاوم دمعها فتجول بنظرها في وجوه الركاب، ويتوقّف ضجيج قلبها لبرهة، وتغمرها الأمومة لرؤية ابنتها في المقعد الأمامي، تدفن رأسها في صدر خطيبها، الأمومة شفاءٌ من أوجاع العمر، حبٌّ غامرٌ مجنونٌ، لا يكسره الطَرْق على أبواب الخيبة، فقد أحبّت ابنتها رغم كل شيء، أحبّتها كما لو كانت ابنة رجل آخر، رجل أحبّته حدّ الحزن الخالد!

لماذا تتحدث إلى نفسها بالإنجليزية؟ أهي العادة؟ أم إنها لفرط ما تماهت بالأمريكيات صارت واحدةً منهنّ؟ ليس صحيحاً أن هويّة الإنسان لا تتغيّر، كلنا نتغيّر بطريقة ما إذا ما سافرنا وأقمنا طويلا في بلاد غريبة، تسقط الغربة بيننا ونتعايش.

لم تنهشها أنياب الغربة في أمريكا، شيءٌ ما داخلها ظلّ متألقاً بحزنه الغامر معظم الوقت، شيءٌ يمكن أن تسمّيه التصالح، في بلاد الحريّة نتصالح مع أنفسنا، نخرج من أصدافنا لنترك جلدنا للشمس والحريّة، الحريّة تستخرج منا أفضل ما فينا، وأسوأ ما فينا على حدٍّ سواء.

بعيداً عن هواجسها، ألقى زوجها يونس رأسه على المقعد، هو المتمرّس في الذهاب والإياب طوال الثلاثين سنة الماضية، لم يغادر قلبه توقيت البلاد، ولا توقيت الغربة، ظلّ متأرجحاً على حبال الوقت المتدلية من الفرص المتاحة، كرجل يتقن التحايل على أسرار الحنين، ويعرف معنى

التوازن على الحبال المشدودة للحبّ الرقيق المتدفق من قلبٍ واحدٍ هو قلبه، حبّ تلفّه هي حول عقلة إصبعها بعروة القنوط.

يتحاشى النظر إليها، هي التي لم ترافقه مرة في رحلة عودة، ويحدق في ابنته عزيزة، وخطيبها ابن أخته أنس، ويستدعي الأفكار لينشغل في زفافهما، خشية من النحيب الذي يتحفّز داخله كلما تذكّر أنها لولا هذا الزفاف لما وافقت أن تعود.

يبتسم لأنس، ولكم تمنى لو أنه حظي بابن مثله، بعد أن قطف الموت ابنه البكر في العاشرة من عمره، وبدّد زواجه الثاني من امرأة أمريكيّة القلب عربيّة الجذور أمله في أن يرى نفسه يتكرر في طفل يبعث الحياة في طفولته المتلاشية. ما أصعب أن ينظر الرجل إلى أبنائه فيرى في قلوبهم ملامح بلاد غريبة، يعيش فيها ويمقتها، ربما لهذا أحب أنساً حبّاً جمّاً، سعيدٌ هو بهذا الزواج، وكأنما يزفّ روحه إلى قلبه.

رائحة فلسطين تسري في أوصالها مع الإعلان عن بدء الهبوط، ويعتريها الارتباك. إنها اللحظة التي هربت منها ثلاثين سنة، ولم يسعفها الهروب، فتتحسّس غطاء رأسها الذي ارتدته عمدا على طريقة اليهوديات؛ لتتماهى بهنّ، وتفرّ من جحيم التفتيش المذلّ، وتتأمل وجوه المسافرين مرة أخرى: ترى كم من فلسطينية تحت هذه الثياب اليهودية مثلي؟

ويستبد بها الارتباك، فتدير خاتم زواجها في إصبعها، تحكم إسدال أكمامها، تنظر إلى حذائها، وتفتح حقيبتها اليدويّة الصغيرة، وكأنّما تفتش نفسها، هل أصابها ذعر المطارات؟ أم أنها حاجة المرأة إلى طمأنينة الحديث في ميدان الصمت المطبق الذي تتبارى فيه وزوجها منذ عشر ساعات؟

لم تتمسك بمسند المقعد لحظة الهبوط. على مشارف الخمسين لا نخاف الهبوط ولا الإقلاع، وحدها الحكايات القديمة تثير الرعب، فلا نخشى شيئا كتسلّل الذكريات إلى غرف القلب البائسة.

دقائق الانتظار القليلة في ساحة مطار بن غريون تتحرش بذاكرتها، فتلتفت إلى يونس المشغول بالعثور على أخيه، فيلوح لرجل ثلاثيني قائلا:" ها هو ذا محمود"، ويمشي مهرولا نحوه، لم تكترث، علها تنجو من انقاض الذكريات، ولم تحاول استبصار الشبه بين قسمات وجه هذا الرجل الثلاثيني الذي يبدو وقوراً وجاداً، وبين ذاك الطفل المشاكس الذي كانه قبل ثلاثين سنة.

يقدمها يونس لأخيه: أم عمر، فتبتسم له وتومئ برأسها، ويقدم ابنته التي ابتسمت بعفويّة أمريكيّة، وصافحته، وقبّل أنس خاله محمود على خديّه، قبل أن يجرّوا الحقائب إلى حقيبة السيارة الخلفية.

صفقت أبواب السيارة الأربعة، ومحمود ويونس يتحدثان وكأنّما لم يفترقا أبداً، وعزيزة تمسك كفّ أنس، وغرقت ياسمين بفلسطينيتها التي تلتقط أنفاسها في حضرة الوطن، وكأنما تفتح سرداباً مرعباً في نفسها، كانت قد أحكمت إغلاقه قبل ثلاثين سنة، أتواجه نفسها أم تواجه الوطن؟ ما الفرق؟ وطنك هو أنت.

الطريق الطويل من المطار إلى شعفاط بدا غريبا، لم يوقظ أشجانها، فاستراحت على وقع الغربة، قبل أن تهجم عليها أوجاعٌ لا يمكنها تجاهل إلحاحها، أوجاعٌ غادرتها منذ زمن بعيد، فما الذي أطلق أوجاع الحبّ في أعماقها بهذه الوحشيّة بعد كل هذا العمر؟ وتهزمها تلك الصور القديمة التي تتراءى لها من النافذة: ذلك الجانب الضئيل من الماضي، والذي لم

تطاله التطوّرات عند الإشارة الضوئيّة التي تدمج الشارع المؤدّي إلى المطار، بالشارع الممتدّ من التلّة الفرنسيّة، إنها شعفاط!

هزمتها رائحة الوطن، فتوقف لهاث قلبها للحظة، وكأنّه لفرط ما تسارع انقطع، وهجم عليها الماضي كمارد يصحو في أعماقها، يمزّقها في استفاقته، لم تعرف معنى ألم الغياب إلا لحظة عادت! فهطلت فلسطين في أعماقها زخّاتٍ عنيفة الاندفاع، هطلت فلسطين في رصيف الشارع، في الشجرة الباقية على قارعة الطريق، هطلت في رائحة حزيران، فلحزيران في القدس رائحة الدفء، دفء البلاد!

واشرأبت روحها تزيح الجديد عن القديم، تستصرخ الأشياء في الشوارع لتستعيد صورتها القديمة. من يملك الحقّ في تشويه الذكريات؟ تريد الشارع الممتد من التلّة الفرنسيّة إلى مدخل شعفاط أضيق! وينتفض فيها الشجن، تريد الجزيرة التي كانت على شارع شعفاط الرئيسيّ، تريد تلك الأزهار البنفسجيّة التي كانت تزيّن الشوارع، لا تريد سكّة الحديد، إنها تبدو كندبة في المكان، يحاصرها الجديد، ويقتلع ألق الذكريات، ويبدد الدهشة، ليرسم الصور الجديدة بقسوة ومرارة.

عند مدخل شعفاط تراجعت قوّتها، فالقرية تحمل ملامح الأمس، تدور عجلات السيارة، وتدور بها الأيّام، وتنسحب منها السنوات، تلتفّ السيارة لتدخل شارع أحمد شوقي، وتلتفّ مشنقة الوطن حول عنقها، وتتعالى داخلها جبال الحزن، وتستعيد رغما عن الغربة، وعن ندوب قلبها المعطوب، ورغم اعوجاج لسانها الذي يجيد مخارج الحروف الإنجليزية كابنة بارّةٍ لأمريكا، ورغم تراكم الوهن في عظامها، تستعيد شبابها بكل عنفوانه وبؤسه، وكأنما ولدت ذاتها في المكان من جديد.

حنين حذر

تتقدّم السيارة في القرية، وكأنّما قلبها يرافق الطريق، يسير بمحاذاة الأمس القادم من رصيف مهترئ، من حجر يسكن جدار بيت شهد مرورها من هذا الشارع قبل ثلاثين سنة. يعتصر ذراته ليتذكّر متى رأى وجهها من قبل وأين؟

بعد الغياب الطويل، تفيض الأماكن حزناً حتى لا تدري أتسير في المكان أم يسير المكان فيها؟ يستفيق الماضي من سباته الممتد لثلاثين سنة، فيبعثر غبار الأيام الأمريكيّة عن وجهها الفلسطينيّ، وتتصارع في داخلها هويتان، ويمتزج حديثها لنفسها بحروف اللغتين، ويسقط قلبها صريعاً بين سطوة زمانين، زمان مضى ويعود الآن مسرعاً في كل شيء، لينفذ إلى نقاط الضعف، فيزيدها هشاشةً، وزمان حاضر مستبد، يبطئ خطوه عمداً ليسلمها للحزن.

تترجّل أمام بيت أهل زوجها، دار أبي يوسف، في آخر شارع أحمد شوقي. فتستعيد قدماها المرتبكتان وقفتها بالكعب العالي في فستان زفافها الأبيض، على باب هذا البيت قبل ثلاثين سنة. وتطيل الوقوف باب السيارة، كأنّما تتلمّس الحصى المتراصّة تحت حذائها، تدخل الفناء فيهوي قلبها كنقطة تحت علامة تعجب، ويسكنها القلق كعروس خائفة من أقدارها، تتوكأ على كفّ رجلها لتعبر إلى مستقبلها، بقلب العروس التي كانت! تتمهّل في إلقاء نظرتها، وتصارع روحها لتعرّي المكان من لوثات الزمن على حجارته، تزيح برمشة عين الطابق العلوي الذي أضيف على البيت، وتزرع بنظرة قويّة شجرةَ التوت التي كانت عند مدخل المنزل.

عندما نلتقي الأماكن بعد غياب طويل، وقد تغيّرت ملامحها من الصعب أن نصافحها بحرارة! فتترك قلبها ليصافح ماضيه بحذر وقلق، وباستعداد مسبق للهزيمة.

ها هي ذي تتوكأ على نفس الكفّ لتعبر إلى ماضيها، فرغم كل شيء فإنّ يونس رجلٌ قويٌّ أمام تقلّبات الزمن، لم يستسلم للغربة، ولم تقهره الذكريات، ينتقل من ماضيه إلى حاضره، ومن شعفاط إلى أمريكا دون حزن! يزور البلاد في سنة اليسر مرة، وفي سنة العسر مرتين، وإذا اشتد الكرب زارها ثلاث مرات وربما أكثر، يأتي إليها طواعية مُحمّلاً بالشوق، يشحذ قلبه من هوائها، ويتزود من دعاء الحجة، ويُقبل حجراً يعرفه بذاته في زاوية البيت الغربية، ويعود قويّا.

بعد وفاة أمّه الحجة أم يوسف، صار يرجع إلى البلاد ليجلس أمام قبرها، ويغافل الناظرين ليقبّل الحجارة عند قدميها ويرحل.

فتذعن له، هو الذي يعرف الوجوه المختبئة خلف التجاعيد، وتلك التي شبّت في غيابها، والتي أطلّت على الحياة خلال الثلاثين سنة الماضية.

تظلّ المرأة بحاجة إلى ذراع رجل في مواجهة مخاوفها حتى وهي على أعتاب الخمسين!

تدخل البيت بحذر، لم يعد البيت ذات البيت، تغيّر طلاء الجدران، وتغيّرت قطع الأثاث، فتجلس متخفّفة من هطول الذكريات، وقد اختبأ الماضي خلف التفاصيل الجديدة.

وجوه، وجوه، وجوه، كلها مبتهجة، وخلف البهجة أسئلةٌ، ودهشةٌ، وفضولٌ، وتهكّمٌ، وشيءٌ من العتب، والقليلُ القليل من الشوق.

تبحث عن خيوط تربطها بماضيها في هذا البيت، ويستريح قلبها لوجه أم صالح، الذي ما زال يحمل ذاك القدر اليسير من الشوق، ما زالت تمتلك تلك النظرة الغامرة الأمومة، رغم التجاعيد البائسة في وجهها، لها روح أرملة ستينيّة لاكتها الآلام، أتراها ما زالت تؤمن أن على المرأة الصالحة أن تواصل العيش بهدوء!

وبهدوئها المعهود احتضنتها، بأمومة طاهرة من إثم الغيرة، مترفعة عن خطيئة الشفقة، على امرأة يعرف الجميع أنها فقدت جسد الأنثى وقلبها، منذ سلبها حادث السيارة المشؤوم شطر ثديها الأيسر، ورجلها اليسرى، وابنها عمر.

لا أحد يعرف قسوة أن تتحسس امرأةٌ نهديها، فترجع لها أناملها خائفةً حدّ البكاء! جسدُ المرأة كرامتها، وامرأةٌ مشوّهة الجسد، امرأةٌ مثلومة الكبرياء!

تستسلم ياسمين لحضن أمّ صالح دون ارتباك، فقد كانت لها أخت كبيرة، يوم سكنت هذا المنزل كعروس بائسة، لسبعة أشهر. وتجيبها بحروف مرتبكة بين العربيّة والانجليزيّة عن حالها، وتستمع لها تخبرها عن أبنائها، وكأنّ ياسمين لم تنس أسماء بنات أم صالح الثمانية! فتردّد وراءها أسماء العائلات التي صاهرتها، وتطرق لذكر مهند المسجون منذ ثلاث عشرة سنة، وتبتسم ببرود لسلفها حسن، آخر العنقود، والذي أقبل إلى الحياة في غربتها.

وتومئ لصالح الذي كان يتأرجح بين الطفولة والصبا قبل ثلاثين سنة، صار أباً لأربعة أبناء وبنتين، أكبرهم يوسف، وهو شاب لطيف، دمث، صافحها عن بعد، وقد قبض كفّه على الهواء، وحرّكها نزولاً وصعوداً بحرارة،

وكأنّما يصافح حقّاً، وهو يضحك بمرح ويقول: الحمد لله على سلامتك يا خالة، نوّرت شعفاط.

وفعل ذات الشيء مع عزيزة التي قهقهت دون تحفّظ، وخاطبته بإنجليزية غنجة: كم أنت لطيف!

تعرفها أم صالح إلى زوجة سلفها محمود، فتبدو لها امرأة مكابرة، يتفصّد القلق من جبهتها، رغم ابتسامتها المشرقة، وتبتسم ثانية لسلفها حسن ذي الثلاثين سنة، فيبدو لها مهموم القلب، وكأنّ المعارك تدور في أحشائه، يعرفها بنفسه بزهو الشباب ومرحهم المكابر: سلفك البائس حسن، أحمل شهادة في الهندسة المعمارية في مدينة لا تصدر فيها تراخيص البناء.

فتضحك، وتقاوم اضطرابها لتظهر حرارةً متكلّفةً وهي تحتضن أم أنس التي ما انفكّت ترمق عزيزة بطرف عينها، وعلى وجهها علامات عدم الارتياح، فيحضر الحاضر لثوان، ويطل برأسه على قلب ياسمين التي لم ترتح لتوجّس أمّ أنس، وكأنّ شيئاً من البرودة قد سرى بينهما، فعيني أم أنس تقولان الكثير، وتشيان بما يجول في صدرها، فتفرك أنفها وكأنما تقول أنها تشتم رائحة المؤامرة تفوح من هذا الزواج، وكأنّ أخوها يونس يريد وضع يده على ابنها أنس، بما وفّره له من عمل، وبما سيقدمه من مصاريف زواجه من ابنته.

وانهمرت الأسماء ذات الوجوه الغريبة على ياسمين، لشباب وشابات وأطفال، كلهم أطلّوا على الحياة في غيابها، ويتشاركون العيش في هذا البيت.

وأطلّت أسماء بوجه جافٍّ مكفهر، تجاعيده لا تشبه التجاعيد التي تحفرها السنوات، وكأنّما حفرت بنصل الدمع، ومدية الوحدة!

بين أسماء وياسمين كراهيةٌ ممزوجةٌ بالحبّ والغيرة، ضاربة في جذور قلبيهما، فهما صديقتان فعلت بهما الأقدار فعلتها، وتبادلتا بجدارة مشاحنات الكنّة وابنة الحماة طوال الشهور السبعة التي قضتها ياسمين في هذا المنزل، قبل أن يلفّ التجاهل المتبادل كل ما كان بينهما من محبّةٍ وبغضٍ على السواء.

تعلّقت عينا ياسمين بعيني أسماء، فرأت فيهما بؤساً عميقاً متأصلاً، فهمست لنفسها: العنوسة في فلسطين كجوانتامو: سجن انفراديّ في قفصٍ مستباح.

تصافحت المرأتان بنزق، وسرعان ما أقبل يونس على أسماء يحتضنها بحفاوة كبيرة، وكأنما يعتذر لها عن جهل الرجال بحلو صفاتها، ومازحها: أنت بركتنا، فلتباركي العروسين.

أسماء التي لا يمكنها تجاهل حبّها لياسمين، لا يمكنها إخفاء كراهيتها لها كذلك، فتهجم على ياسمين كمن يلقي الشوك في طريق عدوه ليعيق انقضاضه عليه، وتلقي سؤالها المفخّخ، بمكرٍ لذيذ: قال لنا يونس أن ساقك انقطعت؟

واستجمعت ياسمين حروفها، كي لا يخونها صوتها: صحيح انقطعت، هذه ساق اصطناعية، كان حادثاً صعباً، ليتني ذهبت كلّي وبقي عمر.

ويخنقها الدمع، ما زال رحيل الصغير طريّاً في قلبها رغم مرور عشرين عاماً على فقده، برحيل الأطفال تدخل الأمّهات مرحلة الأمومة البرزخيّة، لا يمكنها التوقف عن منح صغيرها الراحل الحياة في خيالها في كل مناسبة، ولا يمكنها التوقّف عن الوجع لفقده ورحيله. في يوم مولده، تجمع صوره وتستحضره وقد كبر، وتمنحه أيّاماً وتفاصيل، مع مرور السنين أصبحت زيارة

قبره كدخول غرفته. هذه أوّل مرّة تتمكّن ياسمين من مغادرة المدينة التي تضمّ رفات عمر، ولم تغادرها قبل أن تستأذنه في قبره، وتعده بأن تعود.

وكأنّ هذيان ياسمين الصامت قد سطّر تفاصيله على وجهها، فحرّكت الأسى في الحاضرين، وحرّكت المحبة في قلب أسماء، فجلست إلى جانبها، وهي تقول: الله يرحمه، ويحطّ البركة في عزيزة، إن شاء الله بتفرحي فيها وبولادها.

ثم غيرت أسماء الموضوع: هيّك ما شا الله شاطرة، وعارفة الحيلة، لابسة زيّ اليهوديات.

فتبتسم ياسمين، التي اعتادت على رتق خرم الشوق والحنين الموجع في قلبها، بخيط التبسّم: قلت لنفسي سيريحني هذا من نكد المطار قليلا.

تتدخل أم أنس: كثيرات يتماهين باليهوديات هذه الأيام، فالضرورات تبيح المحظورات، وعندما نضطر إل التواجد في تجمعاتهم، ماذا عسانا نفعل لدفع شرهم غير إخفاء هويتنا والتماهي بهم؟

فتقول أسماء: نسأل الله أن يعجل بالفرج، رغم أنني أعتقد أن هذا سلوك خاطئ، مع احترامي لياسمين، وغيرها، الأصل ألا نخفي هويتنا، فنحن أصحاب الأرض، هم الجديريون بالخوف والتخفي.

فتقول زوجة محمود موجهةً كلامها لياسمين: أسماء ما شا الله عنها من المرابطات، أوّل الأمر كانت مثلنا، تمشي إلى جانب الحائط، وتتخفى، أما اليوم، فتمشي في منتصف الطريق، ولا يهمها أحد، كلنا نشحذ وطنيتنا منها.

فتبتسم ياسمين، وتقول: أسماء كانت دائما شجاعة في هذا الجانب، والصحيح أن العناد مع المحتل عبادة، ولكن التواري ليس كفرا، عن نفسي: أنا بدّي أمرّق هالشهر إلي جاييته وأروّح، بس انتوا أهل البلد، كلّ حدا حسب طاقته وظروفه.

فتردّ أسماء ببطء لتترك في كل حرف معنى: انتوا أهل البلد! ساق الله أيام زمان يا ياسمين، لم يكن مثلك أحد ابنة للبلد.

فترد ياسمين: خَتْيَرْنا يا أسماء، كان هذا قبل ثلاثين سنة، وهي وقت كاف لتنهار دول، فكيف بامرأة متعبة مثلي؟

وتدير أم أنس الحوار لصالحها: أرى أن العروس أراحت رأسها من الحجاب كله.

فتبتسم ياسمين التي تجد نفسها مضطرّة للدفاع عن ابنتها في هذه الجلسة النسائية التي لن ترحم العروس الغريبة من الانتقاد: جيلنا لم يلبس الحجاب إلا متأخرا جدا ، كلّ جيل له ظروفه.

في الغرفة المجاورة، كان الرجال يتحدثون في المال والأرزاق، ولم يُنقذ قلب ياسمين الذي اختنق بالآراء الكثيرة، إلا دعوة أم صالح للجميع للاجتماع على مائدة العشاء.

أول منزل

جنّ الليل، وجنّت الأشواق في دماء العابرين حفاة على شوك الأمس البعيد، بحذرٍ مشت ياسمين على أطراف قلبها، كي لا توقظ الأشجان، إلى تلك الغرفة التي أعدّتها أم صالح لمبيتها وزوجها، بعد ثلاثين سنة، بنفس الاهتمام الذي أعدّتها فيه ليلة زفافهما.

بعد ثلاثين سنة من الزواج، تتمنى لو تمنحها الحياة فرصة البداية من جديد، كما كان يجب أن تكون البداية، فقد كانت البداية مثلومةً وناقصة.

تستسلم للماضي الذي يجول في شرايينها كالنحلة الطنّانة، ويمتصّ القوة المتهالكة في أعماقها تحت سطوة الهشاشة التي فردت جناحيها على قلبها كعنقاء، كيف يمكن لامرأة مقاومة طنين الأغنيات الحزينة في أذنيها، وهي تدخل غرفة شهدت هزيمتها الأولى أمام رجل!

أتراها تعمّدت وضع هذه الشراشف البيضاء ذاتها على السرير؟ كل شيء كما كان في ذلك اليوم، الخزانة ذاتها تشغل الحائط إلى اليمين بعد الباب، السرير الزوجيّ ذاته بنفس الهيئة، الصوان ذو المرآة الكبيرة مكانه تماما، وعليه زجاجة عطر من نفس النوع، الرائحة تهزم تماسكنا أمام الذكريات! فيسري في قلبها العجوز خفر العذراء! وركبتها أوجاع العرائس في بلاد الصمت الأبيض، والحزن الشديد في الليالي المفرحة! اشتدّت في صدرها جذور الحزن، وضربت عميقا كأصابع مارد جبّار يقبض كفّه على كومة الفرح الآخذة بالتلاشي، صدعت في أعماقها مأساة ربيع الذي سعدت برفقته فاستشهد، وسامر الذي أحبّها فجنّ، وأزاحت التراب عن وجه أمّها، فعادت إليها بوجهها الشاحب، وابتسامتها المرهقة الممزوجة بالتعب والأسى يوم زفافها، كيف لم تعرف يومها

أن أمّها كانت تحتضر بصمت؟ وكيف لم تبصر تنكّر وجهها الحزين بأثواب البهجة، وهي تكابر كي لا تزعج الفرح الشديد الحزن، في حفل زفاف ابنتها الوحيدة.

دوختها الذكريات، فأسندها يونس الذي ألف هذا البيت، وعاد إليه وحيداً مرات ومرات، وما زالت تراوده كلماتها ذات ألق: أتمنى لو ترجع بنا الدنيا إلى اليوم الأول، لنعيد البداية لعلّ الحكاية تصبح أجمل.

مرهقٌ هو مثلها هذه الليلة، يواجه ضعفه الشديد أمام رائحة الماضي، التي هجمت عليه كضربة قاضية، قطعت تماسكه المعذّب أمام جسد مشوّه لامرأة ما زالت تمتلك نفس الوجه الآسر، وذات الابتسامة الذابلة، ولم يزدها الحزن إلا اشتهاء!

المكان والعطر وهشاشتها المكشوفة أمام الذكريات، أذكت الأشواق في أوصاله، واستعاد في حضرتها نشوة الانفجار البكر للّذة، فيحتضنها من الخلف بجسارة، ويتخلى عن تردّده، ويقاوم رجفة جسدها العصيّ عليه منذ تمزّق ثديها، في ذاك الحادث المشؤوم، وتجاوز عن قبضتها الضعيفة الممسكة بكفّه التي تمسّد خصرها، وقبّل رقبتها من الخلف، متحاشيا تلك الندبة في أعلى ظهرها، هو في شوق ممض لسعادته الأولى بها، ولاحتفاء قلبه بالمرأة الوحيدة التي أحبّها حدّ الاحتراق طوال هذا العمر، فأجبرته الظروف أن يكون إلى جانبها ثابتاً كجبل الجليد!

متمهلاً بعد ثلاثين سنة، فلم يعد ذاك الشاب الغشيم الذي تسبقه شهوته، ويحرق الحبّ كبده! يقاربها كرجل محترف، يريدها خائفة كعروس، فلا تردعه توسلاتها الخافتة، ويتلمس الطريق إلى روحها، وكأنّه يعرف أن شيئاً خفيّاً في روحها المكبّلة، في هذه اللحظة بالذات يريد استعادة الحكاية من

البداية. غنّى قلبه حبّاً، وعزفت روحها لحن الرجوع إلى البدايات المعذبّة بشجن. نحتاج أحيانا أن نعيد تمثيل المشاهد التي أوجعتنا لننتصر على وجعها!

قضت ياسمين ليلتها الأولى بعد العودة في استجداء النوم، الذي جاءها مضطربا ومشوّشا، كما كان نومها في الليلة الأولى، لكنها بعد ثلاثين سنة أكثر انفتاحا في التعامل مع قلبها الذي يفتّه حضور الماضي المتسلط فتّاً، مزيحا الحاضر من فوق أوجاع الأمس، فيقلبها رأسا على عقب، لينتشل جثّة ما، كانت مدفونة في قعر قلبها، قبل أن تشيَّد فوقها صروحاً وهميّةً من التعقّل.

بعد منتصف الليل، تلتحف جسدها المشوّه، في حديقة المنزل الأماميّة، وسط صمت مطبق، لا يشوّشه سوى زحف الذكريات على قلبها العجوز المتعب، هي التي احترفت الصمت منذ سقط ربيع جثّة أمامها، تجلجل في أعماقها الثرثرة، هل كان ربيع يخطّط لموته؟ ترى هل تغلّب سامر على الأرق؟ هل نسي حبّي؟ وماذا عني؟ هل أحببته؟ ربما لم يكن حبّي له كبيرا، لكنّه حتما كان حبّا خطيرا، كأخطر ما يكون الحبّ!

ذاك الحبّ الذي يولد أخرسَا، ويكبر دون يدين، تغذّيه الأحلام، والنوايا الطيّبة، والكثير الكثير من المثالية والإسقاط، تسقط على الآخر كلّ جميل تحبّه، وترسمه تماما كما تحبّ أنت، لا كما هو، تشبعه وهماً لذيذا جبّارا، وتنسج له الحبل من شرايينك، وتلفّه بنفسك حول رقبتك، وتصعد له الدرجات، وتنزلق عن المنصّة من أجله، تاركاً المشنقة تطبق على عنقك، لتمنحه روحك، وهو هناك ينكش أنفه بلطف، ويفكر في شكل الغيوم في السماء، وبالكاد يراك!

مناكفة

الغربة معركة تدور في القلب لتقلب موازينه، وتجعل البيت منفى، والمنفى وطن، تنتصر الغربة على القلب إذا وقع في فخّ الاعتياد عليها، عندها فقط تتبدّل الهويّة الوطنيّة في القلب، ويحلّ الحنين محلّ الجنسيّة، فبدل أن تكون فلسطينيا، تصبح جنسيّتك: يحنّ إلى فلسطين!

أنس الذي سافر بنيّة الدراسة الجامعيّة، والعمل لكسب رزق يعيل به أهله، ويؤسّس به لمستقبله، ويرجع إلى القدس يشتري فيها بيتاً، ويكون له فيها مصدر رزق، يعبر من الغربة كسهم، ويرسو قلبه في مرفأ الألفة، يجلس في بيت العائلة في كفر عقب، ويُجلس الغربة على ركبتيه، مشتاقاً جدا لعائلته، وحديث الإخوة، متجاوزا حاجز الغياب الذي نسجته السنوات الخمس التي قضاها بعيدا عنهم، فالاتصالات الهاتفية اليومية، وتلك الاتصالات المرئيّة التي كان يتبادلها مع إخوته ما بين وقت وآخر جعلت اعتياد الغربة هشّاً، وحفظت للقلب جنسيته، فيسألهم عن أحوالهم وكأنّه قد ودعهم أمس، فيبادره مالك: نحن بخير، فماذا عنك؟ هل استقرت أمورك بالعمل؟

- العمل مستقر، أنا قلق قليلا بشأن السكن، اتفقنا أن نعيش في بيت أم عمر، حتى نتدبر أمر بيت خاص بنا، وهذا يقلقني، أخاف أن تعيق أم عمر عودتنا فيما بعد.

يسأله حمزة متشككا: هل ما زلت تريد العودة؟

- ماذا تظن إذن؟
- قلت لنفسي: طالما سيتزوج ابنه خاله فلن يعود.

- قل لنفسك: لأنه سيتزوّج فسيعود قريبا، لأنه يريد لأبنائه أن يعيشوا في القدس.

يتدخل مالك: عين العقل يا أخي، ها أنت ذا أنهيت دراستك، فاصبر على الغربة سنتين أخريين، وسترجع إن شاء الله.

فيقول حمزة: والله إنتوا الاثنين مصدقين حالكم! أنت (مشيرا لأنس) تبيع الخمر في محلّ خالك، ومصدّق حالك إنّك متديّن لأنك تصلّي في المسجد، وأنت (مشيرا إلى مالك) شغّال شفير عند شركة إيغد[1]، ومصدّق حالك إنّك مكافح ووطنيّ.

فيضحك مالك: وإنت مصدّق حالك بهذه اللحية، احلق يا رجل، النظافة من الإيمان.

فيغضب حمزة: على الأقل اللحية رجولة، ليست مثل ربطة ذيل الحصان التي تربط بها شعرك كالنساء، لتبدو كيهودي.

مالك بهدوء مستفز: ربطة ذيل الحصان هذه تصرف عليك، إذا كانت لا تعجبك، استغني عنها.

فيتدارك أنس الموقف: دعكما من هذه المناكفة، كل يرى الأمور من زوايته.

فيهمّ مالك بالمغادرة: سيدي إلي قاعد في زاوية يضلّ يشوف فيها، أنا رايح ع الشغل.

فتتدخل أم أنس لأول مرة: مع السلامة يا بني، اهتم بنفسك، ثم ملتفتة إلى أنس: أرأيت؟ كل يوم من هذه المناكفات التي لا تنتهي.

---

[1] شركة باصات عامة (إسرائيلية)

فيتنهّد ويقول لحمزة: بدّك اتطوّل بالك شيخنا، هذه دنيا مش جنّة، واحنا أمّة تعبانة، وشعب محتل، وخياراتنا محدودة، احنا ما بنختار بين صواب وخطأ، قدرنا أن نفاضل بين خطأ وخطأ، ونختار أهون الشرّين.

حمزة بعناد: الحلال بيّن والحرام بيّن، أنتم تستسهلون الحرام، وهذه كل قصتكم.

- هات أخبرنا يا أخي، أين هو الصواب؟ أنت اخترت أن تدرس الشريعة، وستتوجّه بعدها للأوقاف، لتصبح مؤذنا وإماما، ثم ماذا بعد؟ هل ستتسع الأوقاف لنا كلّنا؟ نحن شعب، شعب كامل، مثلي أمثال، ومثل مالك أمثال، كيف ستتزوّج؟ أين ستسكن؟ من أين ستأتي بمليون شيكل لتحصل على بيت؟

- كما قلت أنا اتخذت قراري وسرت في طريقي، وكل واحد منكم كان يمكنه أن يبحث عن طريق لا يتورّط فيه بالحرام، أو بخدمة الاحتلال.

- خدمة الاحتلال؟ نحن نخدم الاحتلال؟ نحن نعيش هنا لأن هذا يزعج الاحتلال، نحن شعب محتلّ، خياراتنا ضيّقة، والصواب الوحيد في هذه المعضلة هو الرباط والبقاء، والثبات، مالك لا يعمل في الجيش، إنه مجرّد سائق، الآن إن أردت أُقنعه بل وأُجبره على ترك هذا العمل، فهل يمكنك أن تتدبّر له عملاً في القدس، عملاً لا يدفع صاحبه ضريبة للاحتلال؟

- وهل أنا وزارة العمل؟

- لأنك لست وزارة العمل، لا ترهقنا بأحلامك الخياليّة، نحن إخوة، وأنت أدرى الناس بقلوبنا، نحن مثلك نريد أن نفعل الصواب، ولكن هل يوجد صواب واحد جليٌّ في هذا العالم الظالم المتداخل؟ ألا يمرغ

أكثر من نصف المقدسيين رؤوسهم في بول الصهاينة وقذاراتهم وهم ينظّفون الحمامات في الفنادق والمستشفيات والمرافق العامّة؟ وهم أنفسهم من يشتبكون مع المستوطنين إذا اقتحموا المسجد الأقصى؟ إن الطبيب الذي يعالج جرحى الاشتباكات مع المستوطنين في المستشفيات العربية في القدس، يقبض راتبه من سلطة أوسلو. نحن نسدد ونقارب، ونواجه أقدارنا.

لم يجد حمزة ما يردّ به على أنس، فاكتفى بالقول: الله المستعان، سأخلد للنوم، كي لا أتأخّرعن الفجر، تصبحون على خير.

وتخرج أم أنس عن صمتها: كل يوم من هذا الحوار، لقد أوجع رؤوسنا حمزة بتديّنه، أول ما استلم الأذان في المسجد فرحت به، لم أكن أعرف أنه سيتحوّل إلى مصدر إزعاج للبيت.

- فترة غشاوة وتمضي، حمزة عاقل، المرحلة ضبابيّة في وعي المسلمين في كافة أقطار الأرض، ستروّضه الأيام.

- طيّب، أخبرني كيف أنت وعزيزة؟

فيبتسم: عزيزة فتاة رائعة، عندما تعرفينها أكثر ستتأكدين بنفسك من ذلك، ولا تقلقي نحن متفقان على العودة والعيش في البلاد، وتحمّل كل ما يتطلبه هذا الأمر من تفاصيل.

رغم أنها لم تطمئنّ: ربنا يتمّم بالخير، ويسعدكم ويهنّيكم.

_ سأخلد للنوم أنا أيضا، إذا تأخّرت بالنوم صباحا، أيقظيني من فضلك، أريد أن أكون في الداخليّة الساعة السابعة والنصف، أريد تجديد هويتي قبل عقد القرآن، لأتجاوز أي تعقيدات قانونيّة لاحقا.

- ربنا ييسّر أمورك يا بني.

الفجر

أذان الفجر، أيقظ أوصال ياسمين، وأذاب الغصص العالقة في حلقها، كمكعّبات الملح الصلبة، وأجراها في لعابها بقسوة، ليسومها العذاب، وأيّ عذاب أشدّ من هجوم صوت أذان الفجر على امرأة مقدسية على أعتاب الخمسين، لم تسمع المنادي في بيتها منذ ثلاثين سنة؟!

الذكريات تصحو في أعماقها كاستفاقة البراكين، ويفزعها المشهد المتدحرج في ذاكرتها، فيثقل لسانها، وتعيش صدمة رحيل ربيع من جديد، وتعاودها أوجاع الحبّ القاسية، وكأنّها بالأمس فقط قد أجبرت على الزواج بغير سامر، ولكن هذه المرة، أمّها ليست هنا لتحتضنها، والأقسى أن وجه طفلها عمر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويدها اليمنى تحت رأسه، وهو يقول: أحبّك يا أمّي، وأحبّ أبي، تنسدل على قلبها كستارة ثقيلة، تحجب عنها رؤية الوجوه البائسة خلفها، دون أن تحجب عنها أصواتهم المستغيثة.

يبتسم لها يونس الذي تنشقت الأشواق في جسده نسيم الحياة، بعد موت سريري للحبّ دام عشرين سنة، فتنأى بنفسها، وتتعمّد سحب ساقها الاصطناعية بيدها من تحت اللحاف، لتضع حدّاً لحالة الحبّ المقطوع الساق التي ضربتهما بعد كل هذا العمر، هو الذي يعيش رجولته بكامل عنفوانها مع زوجة ثانية تصغره بعشر سنوات، وهي المتعبة من سقوط سقوف الذكريات على قلبها، وتجتهد لتنتشل ابتسامة محتضرة من تحت أنقاض عذابها الداخلي لتمنحها ليونس الباذخ السعادة هذا الصباح.

يغادرها يونس إلى صلاة الفجر في المسجد، فتترك قلبها ينزّ ألماً تحت أنقاض الذكريات، قبل أن تخرج هي الأخرى من الغرفة تحمل ساقها بين يديها، وتسحب نفسها على قدم واحدة، إلى غرفة البنات حيث نامت عزيزة، تفزع إليها هربا من صراخ الميّتين في قلبها، كل الميّتين الذين نفخ فيهم أذان الفجر هذا الصباح الحياة، فاستيقظوا يجولون أعماقها، كما يجول المشردون الجائعون شوارع المدينة بحثاً عن وليمة في بيت عزاء، وتريد أن تهدهدهم بأغنية من الثرثرة، ولأنها تعيش معهم برزخها القلبي سرّاً منذ ثلاثين سنة، ولا تعرف بعد حين تبعثهم هل ستؤتيهم كتبهم بيمينهم أم بشمالهم، فإنها تمنحهم المزيد من المكوث في القبر، وتكتفي هذا الصباح بالتشبّث بروح عمر، طفلها الذي قضى بين يديها بحادث سير قبل عشرين سنة، وما زالت كلما أرّقها سؤال الميتين في قلبها عن البعث، ترنو إليه كما يرنو الغريق الميت إلى خشبة ظهرت له على السطح كطوق نجاة بعدما غرق، فأيّ حسرة تنهشها كلما تذكرت أنها بتشتّت ذهنها كانت سبباً في موته! وكأنها تنهل من حزنها عليه حزناً يُعوّضها عن أحزان العمر.

تعصر حزنها اهتماما على عزيزة، التي لن تعود خالصة لها من دون الناس بعد أسبوع، لعلّ الاهتمام ينبت السلوى، تسألها عن ليلتها وعن انسجامها مع بنات العائلة، وعن انطباعها الأوّل عن البلاد، وعن ألق اللقاء الأوّل مع أذان الفجر، تعكف عليها كأمٍّ ستفقد ابنتها الوحيدة في زفاف، بعدما فقدت ابنها الوحيد في حادث، تحاول أن تكون أمّاً أكثر وابنةً أقلّ، هي التي أجبرتها الحياة أن تكون أمَّ أمّها، فقضت أمومتها تتمنّى أن تكون ابنة ابنتها، حين تكبر البنت وحيدةً دون أخ ولا أخت، فإنّها لا تنفكّ تلعب مع أمّها دور الأمّ، لتدخل بعد أمومتها في علاقة بالغة التعقيد مع أبنائها، فهي تريدهم إخوة أولا ثم أبناء.

تجالسها بشغف، تتمنى أن تتشبّث بها وتقول لها: لماذا لا نؤجّل هذا الزفاف شهراً أو شهرين، ريثما أستعدّ للفراق على وقع المكان؟ وتكتشف بعد ثلاثين سنة من العيش في أمريكا، أنّها ما زالت تلك العربيّة التي تحسّ في قرارة شعورها أنها حين تزوّج ابنتها فإنها تعطيها، وحين تزوّج ابنها فإنّها تأخذ له، رغم كل الأمثال الشائعة عن الحماة والكنّة. لا يمكنها ألا تشعر بطعنة الفقد مضاعفة هذا الصباح، لحظة لفّت حزنها الكامن فيها منذ ثلاثين سنة، بكفن عمر الصغير، وحملته على أكتاف عزيزة، لأنها ليست أمّ عمر. كم هي عميقة الحزن اليوم لأن الحياة ما زالت تكيد لها، وستسلبها ابنتها بعدما سلبتها كل شيء.

غربة الهوية

نسمات الفجر تسلّلت باردةً منعشةً على قلب أنس المأخوذ بتفاصيل العذاب الذي ينتظره في مكتب الداخلية في وادي الجوز. يرتدي الملابس المناسبة لهذه المراجعة التي يحاول بها حماية وجوده في وطنه. يرتدي حذاءً رياضياً سهل الخلع، يتنازل عن ساعته وخاتم الزواج، يضعهما على المنضدة، ويأخذ الملفّ الذي رتّب فيه أوراق الجامعة التي تثبت أنّه كان في أمريكا يدرس خلال السنوات الخمس الماضية، ويغادر البيت في السادسة صباحا، كي يتجنّب الطوابير الطويلة التي تتربّص بالقدس وأهلها، في كل مكان، يسير من آخر حي زغير في كفر عقب إلى الشارع الرئيسي.

يصعد درجات الحافلة الذاهبة إلى القدس، لينزل عند معبر قلنديا، يصطفّ بالطابور المخصّص لحملة الهوية الزرقاء[1]، ليجتاز التفتيش الالكترونيّ بعد أن يمرّ بالأبواب الحديديّة الدوّارة التي تعمل بالكهرباء، ويبتسم وهو يربط حذاءه، ويعيد وضع حزامه: اطلعنا من (المعاطة)[2].

ينزل من الحافلة في آخر محطّة في باب العامود، ويحثّ الخُطى إلى بيت جدّه في حارة الواد في القدس العتيقة. يسبق خطواته باتصالٍ بجدته: يسعد صباحها الحجّة أم رجائي.

تعرف صوته، هو الذي لم يتوقف عن مهاتفتها منذ سافر، ووعدها أن يكون عندها صباح هذا اليوم: الله يرضى عليك يا ستّي، يسعد عمرك.

---

[1] إشارة إلى الهوية التي منحها الكيان الصهيوني للمقيمين في القدس.

[2] اللفظ المحكي للتعبير عن الآلة الخاصة بنزع ريش الدجاج، ويطلقه الفلسطينيون على الأبواب الحديدية الدوارة.

- ستّي أنا جاي أفطر عندك، حضّريلنا شاي.
- أهلا بك.

لا يسأم المقدسيّون من تناول الكعك المقدسيّ في الصباح، قد يستبدلون الفلافل بالبيض، أو الجبنة، ولكنهم لا يستبدلون الكعك، فيتناول كعكتين من فرن العربي في الحارة، ويصعد الدرجات قفزا إلى بيت جدته.

الجدّة أمّ، لكنّها حين تفقد الحلقة البشرية التي توصلها إلى حفيدها، تصبح أكثر التصاقاً بحفيدها من أمّه. فيّاض الحنين، كان لقاؤه بجدّته لأبيه، هو الابن البكر للابن الغالي، الذي خطفه الموت على عجل قبل خمس عشرة سنة، برصاصة طائرة أباتشي طائشة، أصابته في رأسه حين كان يحاول العودة إلى بيته في كفر عقب من طريق داخلي، بعدما أغلق الاحتلال الطرق الرئيسيّة، كان يحاول أن يجد للحياة سبيلاً، لكنّه عن جدارة نال لقب شهيد، فما هي الشهادة غير قرارنا الواعي بأننا نريد الحياة حتى حين تمطرنا الحياة برصاص الطائرات الجائر؟ رحل الابن، وترك لها عائلةً من ثلاثة أبناء وبنت، كلّهم معاً لا يعيدون الحضور لروح فقيد قلبها، لكنّها بهم تتعزّى.

يتحرك في بيت جدّته بحريّة، يحضر وإياها فطورهما، وكأنّه لم يغب عن البيت خمس سنوات، حين نسافر بنيّة العودة لا تسقط قلوبنا في بئر الحنين، بل تتألّق شوقاً ويقيناً باللقاء. يسألها عن الأوراق المهمة وهو يحتسي الشاي: أريد أن أجدّد هويتي أعزب قبل أن أسافر، كي أتجنّب المشاكل فيما بعد.

- الآن ستذهب إلى الداخليّة؟

- صحيح، أحتاج إلى ورقة أرنونا[1] باسم أبي، وفواتير الماء والكهرباء.
- إنّها في الدرج المعتاد هناك، ولكن لو أنّك لا تفتح على نفسك أبواب المساءلة الآن.
- أنا أريد تجديد الهويّة، كي لا أفتح على نفسي أبواب المساءلة.
- لقد تغيرت الأحوال في غيابك، لم يعودوا يجدّدوا هويةً لأحد دون أن يكون لديه أرنونا باسمه هو، وفواتير باسمه هو، لثلاث سنوات سابقة.
- ولهذا أريد تجديد هويتي، لأني أعزب، وستكفيني أوراق باسم المحروم أبي.
- ربنا ييسّر أمرك، ألن تسلم على عمّك؟
- ليس الآن، سأعود بعدما أجدّد هويّتي، لأزور قبر أبي، ونتناقش في تفاصيل عقد القرآن بعد غد.

ويغادر بيت جدّته مسرعا.

****

[1] الاسم العبري واللفظ الشائع لضريبة الأملاك، والتي بموجب وصولات دفعها يثبت المقدسيون أنهم مقيمون في المدينة.

الانتظار بحدّ ذاته عذابٌ روحيٌّ ممضّ، وتكاد تخونه العزيمة، وقد لاح له سيل من الرؤوس البشريّة الواقفة أمام مكتب الداخليّة في حي وادي الجوز، فيقف خلف الواقفين، ويغرق في الدعاء والابتهال الصامت، أن يمرّ تجديد الهويّة على خير، يتجاهل العربيّة الثقيلة لحارس الأمن خلفه، مخاطباً النساء في الصفّ المجاور: حجّة وحدة وحدة، عشان أفتح الباب.

فيلعنه في سرّه، هذا الجنديّ الذي يعبث بكرامتنا، ويصدر الأوامر الحمقاء لنسائنا، وكلّما تأخّر في فتح الباب اضطرب الصفّ، وزادات المناوشات الكلاميّة: إنت يختي صفّي منيح، إنت مش هون دورك، ابعدي شويّ، خليهم يشوفونا صافّين خلّيهم يمشّونا، إحنا العرب بنعرفش نصفّ، عرب ونظام؟ صعبة والله!

وتتزايد الأعداد، وتزداد التعليقات قسوة، ويزداد التنمّر، ويبلغ بهنّ القهر مداه، فيبادرهن: طوّلوا بالكم يمّا، خلص صفّوا ومرّقوا هاليوم.

فيتراجعن، ويصطففن، وتفتح البوابة الحديديّة الدوّارة، وتتسابق القلوب لتدخل، وتغلق البوابة وهو على بابها ليبدأ بالانتظار من جديد!

ويغرق في الابتهال من جديد إلى أن تفتح البوابة، فيجتازها إلى الداخل، إلى طابور آخر، وحارس آخر، وإلى التعليقات القاسية نفسها، توجّهها اللواتي مللن الانتظار أكثر من غيرهنّ، فيما يغرق الرجال بصمتهم المطبق: صفّي يختي، طول ما إحنا مش صافّات مش رح ايدخلنا، شوفي كيف صفّ الرجال بيمشي.

وتقول أخرى: يا حرام معها ولد صغير، فقع الولد من البكا، مرّقوها حرام. فتردّ ثانية: كلّنا تاركين ولادنا وجايين. فتردّ ثالثة: إزا احنا مش حاسّين ببعض، بنستاهل اللي بيعملوه فينا.

فيقول في سرّه: ما أبشعنا حين نبرّر إذلالنا! ويعاود ابتهاله.

ساعتان كاملتان من الوقوف على الأقدام، الوقت يمضي، والجسد يتعب، وأخيرا دوره، يُسلّم ملفّ أوراقه للحارس، ثم يمرّ عبر بوابة التفتيش الالكترونيّة، وهو يقول لنفسه: كم مرةً علينا أن نخلع لهم الحزام؟ ويأخذ أوراقه ويمضي إلى طابور جديد في الأعلى!

انتظار، وانتظار، وانتظار، وتمرّ هويّته، ويحظى بهويّة جديدة، فيخرج منهكاً، كالخارج من المعركة. ثمّة شيءٌ في هذه المكاتب (الإسرائيلية) يوجع الكرامة، ورغم ذلك ولأنّه استطاع تجديد هويّته والحفاظ على عنوانه داخل البلدة القديمة، فإنّه يشعر وكأنّه انتصر على هذا الكيان، وانتزع من بين مخالبهم حقّه في البقاء.

عقد القران

عصراً مرّ أنس ببيت أخواله. كان سعيداً ومرتبكاً. أخبر عزيزة همسا أنه جدّد الهويّة، وأخبر خاله علناً أنّ عمّه أبو نافذ سيزورهم بعد قليل، لتهنئتهم بالعودة بالسلامة، وليناقش معهم تفاصيل عقد القران بعد غد، وتفاصيل الزفاف، ولهذا ستحضر أمّه وإخوته من كفر عقب، للتفاهم حول التفاصيل.

ياسمين التي ترغب أن يمرّ كلّ شيء بسرعة؛ لتعود إلى أمريكا قبل أن تلتفّ قيود الماضي حول قلبها، تسأل بريبة: أيّ تفاصيل؟

فيردّ أنس بحذر: تفاصيل عقد القران في الأقصى، ووليمة الغداء، وأمور الذهب، وحفل الزفاف، وهكذا.

ارتعش قلبها من ذكر المسجد الأقصى: هل تريد عقد قرانك في الأقصى؟ لماذا؟!

يجاهد كي لا تشي نبرات صوته بنفاذ صبره: لأنّي ابن القدس، وكلّ المقدسيين يعقدون قرانهم في المسجد الأقصى، هل من مشكلة في هذا؟

تردّ بالانجليزية: كنت أفكّر أنه لا داع للمشوار. يمكن أن نحضر شيخا يعقد القران هنا في المنزل، مشوار الحرم بعيد.

فتتكفّل عزيزة بالرد: لكنه حلم حياتي يا أمي.

بالانجليزية مرةً أخرى: حقّا؟! لم أكن أعلم أنّ لك حلماً كهذا!

- بلى أمي، منذ طفولتي وأنا أحلم أن أعقد قراني في المسجد الأقصى، رغم أنّي لم أزره أبدا، لكنه يبدو لي في الصور مكاناً ساحراً.

ويتدخّل يونس: لا بأس في هذا، لعلّ بركة المسجد تحلّ على زواجكما.

تطرق ياسمين، وينادي أنس خاله إلى غرفة الضيوف الخارجيّة، والمخصّصة لاستقبال الضيوف الرجال، ليهمس له: خالي أرجو أن تحضر الخالة ياسمين لمسألة مهمّة قبل أن يحضر عمّي والعائلة.

بدا على يونس الاهتمام: ما الأمر؟

- أنت تعرف أن بيت الحاج سامي (أبو إدريس) جارنا، أقصد جار بيت عمّي في حارة الواد، هم جد العروس وأخوالها، وعمّي لن يرضى ألا يدعوهم إلى كتب الكتاب، يقول أنّه من المعيب جدّاً أن لا ندعوهم، وهو يعتقد أنّ عليك أنت أن تدعوهم، فإن لم تفعل، سيدعوهم هو، وأنا لأنّي مدرك لحجم المعضلة في هذا الأمر، أفضّل أن تتحدث إلى الخالة قبل حضورهم.

يتنهّد بعمق، ويقول: لا عليك، سأتدبّر الأمر.

****

مساء، وضعت ياسمين ساقها الاصطناعيّة إلى جانبها من جهة يونس في السرير، وهي تردّ عليه بالانجليزيّة وبانفعال بالغ، ونظرها مثبّت على نقطة بعيدة، وكأنّها تتحدّث إلى لا أحد: بعد ثلاثين سنة من العذاب والغربة، والفقد، تأتي لتقول لي جدّها! بعد أن تركني وأمّي وأنا ابنة سبع سنوات، وراح ليبدأ بيتاً جديداً، ويكون له أولاد ذكور من امرأة أخرى، تأتي بعد أربعين سنة لتقول لي: جدّها! لا، وأخوالها أيضا! ولكن هل ألومك؟ وقد فعلت نفس الشيء معي، ومع ابنتك، تنكّرت لذكرى ولدنا، وتحجّجت بحاجتك إلى ولد، لتتزوّج وتؤسّس أسرة جديدة، ولتترك ابنتك تكبر بربع أب.

وكأنّما جلدت أعماقه: أنا يا ياسمين تركتكم؟ ألست أنت من رفضت أن نعيش كأزواج منذ الحادثة؟ ألست أنت من رفضت أن يكون لك ولد غيره؟ ألست أنت من قلت لي:" تزوّج، فإنّ بقاءك إلى جانبي عبءٌ عليّ؟

ماذا كنت تنتظرين منّي إذن؟ أن اقضي العمر استجدي منك أن تكوني أرضي لأكون سماءك؟

بنفاذ صبر، ودون أن تزحزح نظرها عن البعيد الذي تحدّق فيه: حسناً، نحن لا نناقش علاقتنا الآن، لنبقى في صلب الموضوع، لا أجد لهم أيّ حق في حضور عقد قران ابنتي، ولا زفافها.

- لا بأس، سألتمس لك العذر لأنّي أعرف أنّ موضوع عائلتك يوتّرك، ولكنّي لن أنسى ما قلته، وسنتحدّث فيه مطوّلا فيما بعد، أما موضوع أهلك، فأرجو أن تتفهّمي أنّك هنا في القدس، ولست في أمريكا، هنا لا يمكننا تجاهل المجتمع، لا يمكننا أن نسمح بأن تصل بطاقة الدعوة إلى الزفاف من الجيران إلى بيت جدّ ابنتنا وأخوالها، هذا عيب، نحن من يجب علينا أن نتوجّه لهم بالدعوة، ولا يجوز ألا ندعوهم لحضور عقد قرانها، وهم جيران أهل خطيبها، لا يمكننا تجاهلهم.

- لقد تجاهلناهم ثلاثين سنة، ما الجديد؟

- أنت تجاهلتهم في غربتك، أنا لم أتجاهلهم، ولا أستطيع، كنت أزورهم كلّما حضرت، وكانوا يودّونني، وبيننا دعوات وولائم، وواجبات اجتماعية، ولم أكن أخبرك، كي لا تغضبي، ولا يمكنني في هذه المناسبة بالذات تجاهلهم، إنّهم أهلك يا ياسمين، ستبعثين يوم القيامة وأنت ابنة هذا الرجل، وأخت هؤلاء الرجال، لا يمكنك التخلّص من هذا المصير أبدا، لا أحد يستطيع قطع رباط الدمّ.

- أرجوك أن تفهم، أنا لا أستطيع مقابلتهم، لا أستطيع حتى لو أردت ذلك.

- لا بأس، سنتدبّر الأمر، عقد القران في الأقصى، ولن تضطرّي للتعامل معهم، خذي زاوية وابتعدي.
- لن تنجح الفكرة، سيلاحقني أبي، أفكر ألا أذهب.
- إذا سمحت لك أمومتك ألا ترافقي ابنتك في هذا اليوم، فلك ذلك.
- أنت تحاصرني.
- بل أنت حرّة.

قضت ليلها تفكر في حقيقة أنّها حرّة، وهي المقيّدة بالعذاب النفسيّ على امتداد السنين، كيف لها أن تخرج مارد الألم من قمقمه؟ كيف لها أن تواجه أباها بعد كل هذه السنوات من القطيعة؟ ولكن هل تترك عزيزة في يومها؟ تركلها الأفكار ككرة، وتتقاذفها الاحتمالات، وتقرّر أخيرا أن ترافق ابنتها، وألا تراهم، حتّى لو كانوا في مرمى نظرها، قرّرت أن تغلق عين القلب عنهم.

****

تفاصيل صباح يوم عقد القران حميمة، تتسلّل إلى قلب عزيزة المشتاق للجوّ العائليّ الدافئ، جوع طفلة نشأت وحيدةً، وكبرت وحيدةً، ولا ترى لنفسها خلاصاً من وحدتها بغير الزواج، وإنجاب الكثير من الأبناء، ليكون لها عائلة كبيرة!

يبدأ الصباح باحتواء ياسمين الغامر لابنتها الوحيدة، رفيقة الحزن والغربة، وبغبطة أسماء التي علّمتها التجارب أن تبالغ في إظهار الفرح في هكذا

مواقف كي لا تثير حول خيبة قلبها الأسئلة، وبجلبة بنات الأعمام اللواتي غمرنها هذا الصباح بالقبلات والنصائح، وبالدعاء الشعبيّ الشائع: ربنا يتمم بالخير.

وبحضور أنس وأمّه وإخوته، تمضي العائلة في موكب صغير بسيارتين إلى المسجد الأقصى، حيث اتفقوا أن يكون لقاؤهم، يتبادلون النكات والأحاديث، فتختلي ياسمين بقلبها وسط الضجيج، وتشرع أبوابه لتوشوش جدران المدينة: رفقاً بقلبي يا قدس، تتقافز الروح في خلجات نفسي، وتسبقني إليك، أنا أريدك بنفس القدر الذي لا أريدك، وكأنّي أدخل نفق المازوشيّة، ولدى ياسمين المصلوبة في قفصيّ الصدري منذ ثلاثين عام، نيّة جبّارة للقيام، إنّني أقوم فيّ كقيامة المسيح، فهل سأرتفع للسماء؟ أم سأهوي في واد سحيق؟ وكيف لا تقوم نفسي عن صليبها، وهي في مدينة القيامة؟

وتنشطر إلى اثنتين، تقول الأمريكيّة فيها للمقدسيّة التي على صليبها: هذه الأرض أعرفها وتعرفني، أعرف تلك القطعة القديمة من البلاط في هذا الشارع، هذه الطريق أذكرها وتذكرني، أعرف هذا الدرب الذي لطالما مشيت فيه، وصار فيَّ خندقاً، أعرف تلك السبل المؤدّية إلى تلك الأماكن التي احتضنت طفولتي، أذكر بسطة الكتب عند إشارة باب العامود، هنا اشتريت أوّل رواية حبّ، وهنا خبّأت في جيب مريولي المدرسيّ أول قلم أحمر شفاه اقتنيته خلسةً عن أمّي!

ويتدحرج قلبها مخترقاً جسدها المشوّه، ذا الندوب الكثيرة، لقد صار قلبها أمامها، ينثر عليها غبار السحر، فيرمّم جسدها، ويشفي جروحها، ويصبغ الشيب في رأسها، ويسحب الآلام من دمها، ويعيد لها ساقها، فتعود طفلةً تقفز على الدرجات، ويعود للقلب قلبه! يعيد إليها الحياة، ويُعمّدها في مغطس الحزن، بماء بارد برّد الغربة، موجعٍ كوجع وجه أمّها الغائب، داكنٍ كظلالنا على جوانب الطريق، مغطس دائري كعيني ذاك (السكناجيّ)،

ينزّ دماً كجسد ربيع، مغرقٍ بالألم كقلبها، باذخ الحزن كسامر، وتضجّ أعماقها بالنحيب: من يعيد لي أمّي؟ من يعيد لي أبي؟ من يردّ لي أحلام العمر مع سامر؟ ومن يرجع لي عمراً تسرّب من بين أصابعي؟ من يداوي ندوبي؟ ما أوجع العودة إلى بلاد ليس لنا فيها إلا الحبّ! أحبتني هذه البلاد حدّ الألم، وأحببتها حدّ الرحيل.

مع آخر درجة في الطريق إلى باب المجلس[1] أدركت أنّها لم تغادر القدس يوما، وأنّها طوال الثلاثين سنة تلعب معها لعبة الاختباء! ثلاثون سنة والقدس قابعة في الصفّ الأماميّ في قلبها، تراقب أداءها التعس على مسرح الحياة، ثلاثون سنة وياسمين تُخفق، والقدس في أعماقها تصفّق، علّها تُحسّن أداءها الضعيف! وتناجي دماؤُها المدينة: لم أنجب لك أولاداً، ولم آتيك بشباب رائعين، أنجبت بنتاً، ولم أنذرها للعبادة، اعتقدتُ أنّني نذرتها للسعادة في بلاد الحريّة، ولم أدرك إلا الآن أنّني نذرتها للوهم! فالسعادة لا تفرش على وجه الأرض كالعشب الاصطناعي! كان يجب أن أتركها تغرز جذورها هنا لتعرف السعادة، لا سعادة غامرة دون حزن غامر! هنا الحزن كبير، والفرح حقيقيّ، هنا أنا، أنا من هنا، أما هنا فليس منّي! هنا من عذاب وصبر، هنا من وجه أمّي المرهقة، من قلبها الكبير، هنا من فراق أبي، هنا تتصافح القلوب مع بلاط الأرض، مع غبار الدهر على الجدران الرطبة، هنا تتصافح الآذان مع الصوت المميّز المندفع من حناجر المقدسيّين في القدس العتيقة، هنا هُزمت! وهنا انهار التماسك داخلي، هنا أسلمت قلبي واستسلمت!

---

[1] أحد أبواب المسجد الأقصى.

لا تعبأ ياسمين بكل ما يدور حولها، تركت عزيزة لأنس يعرفها على المكان، وتحاشت يونس الذي لن يتحسّس استفاقة الشجن فيها، صلّت بقلب خاشع، كي لا تسقط منها دمعة حين ترى أباها، ثم استدركت: يا رب لا تجعلني أراه.

دخلت المسجد الأقصى مثخنةً بخنادق الضعف المقيت، تماحك الذكريات قلبها بخشونة، وتمدّ لسانها بوقاحة هازئة من اختبائها وراء الغربة، ومن اعوجاج لسانها الأمريكي، تحدّثها بلغة القلب: أين ستهربين من قلبك؟

كمن يعرف أن لا مفرّ، جلست في فناء المسجد الأقصى، رفقة عزيزة، وأم أنس، وجدّته لأبيه، وتحاشت بقوّةٍ النظر إلى الزاوية التي يجلس فيها المأذون، هناك كان يونس وأنس، وعجوزٌ غضّت بصرها عنه بقوّة، وكل خليّة فيها تصلّي، كي يثبتها الله، فلا تنظر إلى عينيه، فتنهار، تقول لنفسها: هذا أبي، وبيننا جرحٌ عميق، وغربةٌ دامت ثلاثين سنة، فمن أين لي بجسرٍ أعبر به عمراً من الحزن والتواري؟ يا رب اجعل هذا اليوم يمضي على خير.

تبتسم لعزيزة وتُربّت على كتفها لحظة قامت لتلبّي نداء أبيها، ظلتّ مولية ظهرها للرجال كي لا تلتقي عيناها بعيني أبيها، تسمع المأذون يسألها عن رأيها، ثم تسمع همسها: أقبل. يطلب إليها أن تُوقّع على أوراق، فتسمع ياسمين صرير القلم، لشدّة حرصها على أن تعيش اللحظة مع ابنتها، لكنها أجبن من أن تلتفت.

تبتسم لعزيزة مرةً أخرى، وتحتضنها وهي تقول: مبروك يا ابنتي، وتبالغ في التواري، وكأنّما تريد أن تخفي قلبها في ظهرها، وظهرها في قلبها، وتتوارى تماما، تشعر بنظرات أبيها تخترق ظهرها، وتلهب أعماقها عتاباً، فتلوذ بالله تناجيه: يا ربِّ لا تجعله يحدثني، يا ربِّ أنا لست جاهزة.

تجلس على الدرجة القصيرة على باب المسجد، وتركّز في ارتداء حذائها، وتبالغ في التركيز على تثبيت الحذاء في القدم الاصطناعية، ولا تلتفت لصوت يونس يقول لعزيزة: سلمي على جدّك، ولا يرتعش جلدها لصوت أبيها وهو يقول: مباركٌ يا ابنتي، التمام على خير، وتتنفّس الصعداء أخيرا، حين سمعت صوته ثانيةً يودّعهم: إن شاء الله ألف مبروك، نستودعكم، لديّ بعض الأشغال، فتنهض مطمئنّة إلى ذهابه، فتراه محدقاً بها وهو يمشي بمحاذاتها مغادرا، فتغضّ طرفها بسرعة، لكنّها لم تنجُ من نظرته الثاقبة التي اخترقتها كرصاصة قنّاص، وجهه تجعّد عند الجبهة قليلا، شاربه الأبيض، كتفاه شامختان، كما كانا دوما، مشيته لم تعد متوثبة، متثاقلة رغم سهولة حركته كرجل في السبعين، ونظرته هي ذاتها نظرته حين يغضب، لقد غضب، بل إنه يتوعد، لقد كسر تماسكها بنظرة، وأرداها صريعة القلق، لم يحزنه تجاهلها له، بل أغضبه، وهذا يعني أنه لن يتركها وشأنها.

مجاملات اجتماعية كثيرة قيلت من هنا وهناك، كانت ياسمين ذاهلة عنها تماما، حتى بدت لجدّة أنس لأبيه كخرقاء، لم تستطع تجاوز الهزة العنيفة التي ضربت جذع القلب الذي يحمل صليب ياسمين القديمة منذ ثلاثين سنة، فأخذت تدافع عن ياسمين الأمريكية فيها، لتحول دون قيامة ياسمين المقدسيّة، ودون اكتراث بحدود الذوق واللياقة الاجتماعيّة، أطلقت العنان للإنجليزيّة على لسانها، لتحتضن بكل حرف سعادة ابنتها بهذا اليوم، سار الرجال أمامهم، وسرن خلفهم، وهي تثرثر كلاماً بلا معنى في أذن عزيزة، حول سعادتها بإتمام الأمر، حتى استأذن أنس منها ليلتقط بعض الصور مع عروسه، فلملمت ياسمين شعث قلبها، وعادت تتبادل المجاملات الاجتماعيّة مع أمّ أنس وجدّته.

لم يستعجلوا العروسين، بل جلسوا على المصاطب[1]، وتجاهلوا أمرهما تماما، حتى قال عمّ أنس، مخاطباً يونس: نحن سنترك لكم العريس، ونستأذن، ونلتقي في بيتكم بعد العصر لإتمام مراسيم الطلبة الرسميّة، وسنحضر معنا عشاءً للضيوف، إن شاء الله ألف مبروك عليكم وعلينا.

يصافحه يونس: التمام على خير.

ويرقبه حتى يبتعد قليلا، ثم يقول بدوره: واحنا خلينا نتسهّل. ويشير لأنس ليحضر، فيبادره: خالي إحنا بدنا نروّح، عنّا شغلات كثيرة نعملها قبل موعد الطلبة العصر، لفّولكم لفّة كمان والحقونا، بنلاقيكم محلّ ما صفّينا السيّارة عند باب الساهرة.

- لا بأس، احنا طالعين معكم.

****

جاهدت ياسمين كثيرا في المساء، بين النسوة المتحفزات للحديث عن تفاصيل الزفاف، حين بدأت أم أنس: الفستان الذي اختارته عزيزة على صفحة المحلّ على الفيسبوك، حجزناه لها من لحظتها، لكن لا بدّ أن تقيسه فعليّاً غدا، ليتسنّى تعديله إذا احتاج إلى تعديل. ولم تُفوّت صبايا العائلة فرصة للتأكيد على أنّه اختيارٌ موفق، وأنّه لن يحتاج إلى تعديل، لأنّ قوامها رائع، وتحدّثت جدّته في المهم: إذن غدا نشتري الذهب، وتقيس العروس الفستان؟ فتتدخّل زوجة عمّه أمّ نافذ: وإذا تيسّرت الأمور، وتسنّى لنا الوقت اشترينا الملابس. وتدخّلت ياسمين لأوّل مرّة: لا نفكر بشراء الكثير من الملابس،

---

[1] اللفظ الشائع للأماكن الحجرية المرتفة المنتشرة في باحات المسجد الأقصى، والتي كانت في السابق مجالس للعلم.

بعض الملابس فقط للأسبوع الذي ستقضيه هنا، الموديلات تتغيّر كلّ يوم. فتقول أمّ أنس: عين العقل، لتختار العروس ما تشاء. وتضيف أمّ نافذ كمن تذكّر شيئاً: صحيح، ولعلّنا نمرّ بالقاعة لتعاينوها، لقد حجزنا أفضل قاعة في كفر عقب. وربما تحبّ العروس أن تضيف شيئا على قائمة الأغاني. فتتدخّل أمّ كريم بحماس: هذه عليّ، وتتوجّه بحديثها لعزيزة: لقد وضعت لك مجموعة من الأغاني، لنستمع إليها الليلة ونختار منها.

بصبر جميل، احتفظت ياسمين بابتسامتها، وبكثير من اللباقة، نجحت في مجاملة الجميع، بانتظار ساعات السحر، بعدما هجع الجميع، ألقاها الأرق وأسماء في ساحة البيت الأماميّة. فلا تجد ياسمين المشوّشة الذهن ما تقوله لأسماء غير سؤالها إن كانت تودّ مرافقتهم غدا إلى السوق. فتعتذر أسماء دون تردّد: لا، لن أرافقكم، لديّ ما أقوم به حسب برنامج المرابطة في المسجد الأقصى.

وقعت الكلمات باردةً على قلب ياسمين، فأطفأت سخونة الأرق، لا شيء يبلّ أشواق المقدسيين كتهشّمهم معا تحت أنقاض قضيتهم الكبيرة!

فجأة سرت الألفة بين روحيهما، وكأنّما لم تفرقهما مشاجرات الكنّة وابنة الحماة، ولم تلوّث صداقتهما القطيعة الطويلة. تسألها ياسمين عن المسجد وأحواله: فتفيض أسماء بالقصص كبحر غمره المدّ، وتنهل ياسمين من حكاياتها كشاطئ ظامئ!

لعلّها أولّ مرّة تشعر ياسمين أنّها ابنه عاقّة لمدينة حنونة، تحسن إرضاع أبنائها الحبّ مع الحزن!

وتتحفز أسماء لإخبار ياسمين عن التفاصيل الصغيرة التي تعرف أنها ستدهشها: نحن لا نفعل شيئا سوى المكوث في المكان بالتناوب على مدار الليل والنهار، نرتّب برامج للبقاء في الساحات صيفاً وشتاءً، نلاحق

المستوطنين بالتكبير، ونعقد حلقاتٍ للذكر وأخرى للنقاش، وننظّم مخيّماتٍ صيفية للأطفال، فالرجال إما مشغولون بأعمالهم، وإما ممنوعون من دخول الحرم القدسيّ معظم الوقت، لذا بادرت النساء للرباط في المسجد، خاصّة بعدما قرّرت حكومة الاحتلال السماح للمستوطنين بالتواجد في ساحاته.

وتستدرك: مؤخرا صاروا شرسين مع النساء، يسحبون الحجاب عن الرؤوس، ويحجزون الهويّات على البوّابات، ويصدرون أحكاما بالإبعاد عن الأقصى، بتهمة التكبير في ساحات الأقصى! يا له من ذلّ! ويا لها من تهمة!

- أرجو أن لا تكوني قد تعرضت لشيء من هذا؟
- حتى اللحظة لم أتعرض لشيء والحمد لله، فأنا مع الجموع ولست من البارزات، ولكنّنا نشعر أننا جميعنا مستهدفات.
- حماكن الله يا أسماء.
- حمى الله الأقصى، دونه كلّ شيء وكلّ أحد يهون.

برضا استقبلت ياسمين حلكة الليل قبيل الفجر، فقد بدّد حديثها مع أسماء من وحشة قلبها، وبشغف أمٍّ رافقت عزيزة صباحا، فقد حضر أنس وجدّته بالسيارة، ليقلّ عزيزة وياسمين وأمّ كريم التي تحمّست لمرافقتهم إلى أسواق رام الله، لإتمام مستلزمات الزفاف، وبادرهم بقوله: أمّي تنتظر في كفر عقب، سترافقنا هناك.

فلطمتها الطريق، من لحظة ما تراءى لها الجدار الذي يلتفّ كمشنقة حول عنق المدينة عند ضاحية البريد التي صار لها دوّار، إلى أن سارت بمحاذاته وهو المزروع عنوة فوق وجه المدينة كندبة.

ما أبشع أن يعجز المرء عن احتضان ذكرياته في مدينته العزيزة! وكم هو قاسٍ أن ترى بلادك مشوّهة. مشوّهةٌ كفرعقب التي نبتت فيها العمارات كما اليقطين بسرعة فائقة، وتطاولت وتزاحمت لتسدّ وجه الشمس، ولتتّسع الأحلام والآمال.

في أسواق رام الله، بدا لها أنّ الوطن قد تعرّض لعملية تجميل قدريّة على يد الزمن، أخذ فيها الزمن من لحم أحياء القدس، ورتق جروح رام الله وندوبها، من عمارة إلى عمارة، ومن دَرجٍ كهربائي لآخر، ومن مجمّع تجاريّ لآخر، ومن علامة تجاريّة لأخرى، كادت تقول إنها في رام الله ستيت[1] ستي.

لا تخفي أمّ أنس فخرها، في كلّ مرّة تظهر فيها عزيزة انبهارها بالأماكن والماركات، وكأنّها تشتري من أسواق الولايات المتحدة، ولا تخفي ياسمين تأثّرها ممّا آل إليه حال المدينة، فما قيمة كلّ هذا البذخ ما دامت الأرض ثكلى، والإنسان محاصر؟

استمتعت عزيزة كثيرا بالتسوّق، وغمرها سحر اللون الأبيض حين جربت الفستان، فكان مذهلاً ومناسباً، وحبست أنفاسها حين تجولت بالقاعة، ورأت فخامتها، وروعة ديكوراتها، وكأنّ رام الله ستحقّق لها أحلام الزفاف الأمريكي التي رافقتها منذ أدركت معنى الأنوثة لأوّل مرة.

قادتهم أمّ أنس بالسيّارة إلى مطعم (دارنا)[2] في طرف المدينة، حيث كان أنس قد رتّب لهم مائدة الغداء، كي لا يطول انتظارهم في المطعم، واستأذن ياسمين في أن ترافقه عزيزة بالعودة إلى البيت بالمواصلات العامّة،

---

[1] المقصود أنها تشبه أي ولاية أمريكية، من حيث العلامات التجارية.

[2] مطعم شهير في رام الله.

فلم تُخفِ عزيزة حماسها، ولم تُخفِ ياسمين استغرابها، فهمس لها: أحبّ أن تشاركني كلّ تفاصيل البلاد.

احتسوا قهوتهم في بيت أنس في كفرعقب، قبل أن يوصلهم أنس إلى شعفاط، والبلدة القديمة.

مرابطة

تعمّدت أسماء الخروج باكراً صباحَ ذهاب ياسمين وعزيزة وأم كريم للسوق، ليس فقط لأنّ سهرتها مع ياسمين وحديثها الطويل عن دورها كمرابطة في الأقصى أذكيا روح الفداء في قلبها، بل لتثبت للجميع أنّ تفاصيل الأفراح والزفاف لم تعد تتحرش بقلبها، ولتؤكد لهم أن خروج عروس أخرى من هذا البيت الذي لطالما شهد خروج عرائس على امتداد ثمان وأربعين عاماً هي سنوات عمرها، لن يثير حفيظة قلبها العجوز. وفي مبالغةٍ منها لنفي شبهة الغيرة والأسى على الحال عن قلبها، عرضت على أم كريم اصطحاب كريم معها إلى المسجد الأقصى، كي لا يملّ بانتظار عودتها من السوق.

للأقصى نسيمٌ روحانيٌّ يبعث في النفس السكينة، فتسير أسماء بخطى واثقةً، وكريم الصغير يقفز فرحاً، تجلسه إلى جانبها في الحلقة المنعقدة على المصطبة في باحة الأقصى، إلى يسار الممرّ الممتدّ من باب الأسباط إلى المصلّى المروانيّ، وتنشغل في مناقشة مسألة فقهية، وكريم يلعب قبالتها في الساحة.

كيف انشقت الأرض عن سرب من المتديّنين اليهود على بُعد خطواتٍ من الصغير؟ انقضّوا عليه، بصفعات قوية، فصرخ الصغير صراخ مشبع بالخوف، انخلع له قلب أسماء، فهرعت إليه، لتجدهم قد طرحوه أرضاً، وداسوا عليه، فألقت نفسها تحت أقدامهم ودفعته بعيدا، فنالت من ركلاتهم ما نالت، وأفلتت منها صرخات الألم، فأذكت حقدهم، وسرعان ما التحمت النسوة معهم في عراكٍ بالأيدي والأرجل، والصغير عالقٌ في جوف الخوف، وعاجز عن الحراك، وأسماء تناضل تحثه على النهوض، فلا تفلح، فتفديه بجسدها، وتتلقى عنه الركلات والضربات،

إلى أن تمكن بعض الشبان من محاصرتهم، وانتشال الصغير، ومساعدتها على النهوض، وهم يتبادلون والمستوطنين الشتائم والوعيد.

حدبت أسماء على كريم تهدهده: لا تقلق يا صغيري، لقد أنقذناك، لا تخف! وهو يلهث وقد تملّكه الرعب، فبدت قسمات وجهه غايةً في البؤس، تحفر القهر في قلوب الناظرين إليه. وتلكزها إحداهنّ لتقدم لها حجابها الذي التقطته عن الأرض، فتتنبّه إلى ما حلّ بها، فتأخذ بلملمة أشيائها المبعثرة وترتيب هندامها، وتبادرها إحدى زميلاتها في الرباط: سيّارتي في موقف باب الأسباط، دعيني أقلّكما إلى مستشفى المقاصد، وتوافق إسماء دون تردد، في الملمّات يستعيد الناس إحساس الإخوة الغامر!

في السيّارة لم ينفكّ الصغير يبكي ويردّد: كلّهم هجموا عليّ، معملتلهمّش إشي، ليش ضربوني؟

فتجيبه المرأة بأسى: الله يكسر إيديهم يا خالتي.

في المستشفى بدا الأطباء معتادون على استقبال حالات كهذه بين يوم وآخر، فالاشتباكات اليوميّة مع المستوطنين في باحات الأقصى، تجلب لهم الكثير من الرضوض والكسور في الأضلاع والأيدي والأرجل، اطمأنّت أسماء على كريم، حين قال لها الطبيب بعد تأمّلٍ طويلٍ بصُوَرِ الأشعة: رضوضٌ كثيرة، ستزول مع الوقت والراحة، كلُّ ما يحتاجه هو مُسَكِّن ألمٍ مناسبٌ لعمره.

طوال طريق العودة من حيّ الطور إلى قرية شعفاط، وأسماء تحتضن كريم وتحدب عليه، فكم تتماهى العمّات بالأمّهات، ولا أحد يدرك فيض الشغف الغامر الذي يترقرق من قلب عمّة عزباء على ابن أخيها الطفل، حدبت عليه كقطعة من قلبها، ولم تتنبّه إلا حين توقّفت السيارة أمام البيت،

فأجزلت الشكر لزميلتها في الرباط، وألحّت عليها لتتفضل، ولكنّها اعتذرت بلطف: خلّيكم ترتاحوا وتشوفوا حالكم.

وسبقها كريم ببكائه إلى البيت، مهرولا ليخبر أمه الخبر، فجنّ جنونها، وارتمت عليه تتحسّس وجهه وجسده، تحتضنه ثمّ تبعده وتتفقّده، وتحتضنه من جديد، لم تنتبه إلى وقوف أسماء بالباب، فقد كنّ منهمكاتٍ في تفقّد كريم الذي قال: وضربوا عمّتي أسماء وشلّحوها المنديل.

فأقبلت أمّ صالح عليها: هل أنت بخير؟

- مرقت على خير، الله ينتقم منهم، والله ما غفلت عنه ولا لحظة، طلعوا من تحت الأرض، وأمسكوا به زيّ الكماشات.
- كسر الله أيديهم وأرجلهم.
- ماذا قالوا لك في المستشفى؟
- الحمد لله، أنها مجرد رضوض، وستزول مع الراحة والوقت.
- وأنت ماذا عنك؟
- نفس الشيء، بالإذن منكم، أشعر بحاجة ماسة للنوم.

ليلتها لم تفارقها ياسمين، ظلّت ساهرة إلى جانبها، تعتني بها وتتحدّث إليها، فلا شيء يرمّم العلاقات المشروخة كالوجع الكبير، ذاك الوجع الذي استيقظ في قلب ياسمين مذعوراً أمام قلق كريم، ليبعث فيها كلّ أوجاع الأمومة المعذّبة بفقد طفلها عمر منذ عشرين سنة، أفاق كالمستجيب لصيحة البعث، فقامت اللوعة في قلبها، ترافقها كلّ مشاهد الحادث، ولحظة فارق عمر الحياة بين يديها، كلّها اجتمعت في استغاثت كريمٍ بأمّه.

في المرّات القليلة التي غفت فيها ياسمين إلى جانب أسماء في تلك الليلة، حلمت بعمر يتشبّث بها، ورأت نفسها تنتشله من بين حديد السيارة، وتنفخ في فمه هواء الحياة، ورأته يعيش، ويكبر، ويرافقها في رحلة العودة هذه، وقد غدا شاباً قويّاً.

هل يفرح الحزن؟

لماذا يحضر الموتى بقوّة في طقوس الفرح؟ تتساءل أمّ أنس وقد داهمها الحزن في صورة أبي أنس التي تفجَّرت في أعماقها الليلة بالذات، وكأنّها تفي له بوعدٍ قديم، وعدٍ تلفّعت به يوم ودّعت جسده ليوارى الثرى، بأن تبقى وفية لأسرتهما.

تدرك الأرملة العلاقة القويّة التي تربط السعادة بالحزن في قلبها المكلوم، وتدري أنّه على قدر سعادتها يغمرها الحزن، وعلى قدر الحزن تتضخّم السعادة.

من أين يأتي كلّ هذا الأرق غير المبرّر إلى قلوب العروسين وأهلهما في الليلة التي تسبق يوم الزفاف؟ أرق لم ينجُ منه قلب ياسمين المتشظّي بين الماضي والحاضر. فتسهر بصمتٍ تراقب نبض أمّها في نبضها، وتدرك أخيراً كم كانت ليلة زفافها قاسيةً على قلب أمّها الضعيف. ولم يعتق الأرق قلب يونس الذي تتجاذبه المشاعر، كوالد العروس وخال العريس، والخال والد.

كان ليلهم طويلاً، لكنّهم التحفوا أرقهم وناموا جميعاً قبل أن ينتهي الليل.

في حفل الزفاف، صار قلب ياسمين أمّ العروس ساحةً يراقص فيها الحزن الفرح، فتصبح هشةً قريبةً الدمع، غامرةً السعادة، لا تتوقّف عن تأمّل ابنتها، وكأنّما تخاف أن ترمش فتفقد لحظة مقدّسةً من حفل عزيزة النقيّة، كقطرة ندى بكر في أوّل الصباح. تحدّق بها، رغم تزاحم الصور في قلبها، صورة عزيزة الوجه الصغير النائم ببراءة على صدرها ليلاً، عزيزة أنصاف الكلمات المتلعثمة، عزيزة الخطوات الأولى المتعثّرة، عزيزة الضفائر الخارجة عن المألوف في بلاد تطلق العنان لكلّ شيء، عزيزة ارتباك البلوغ،

وضحكة التفّاح في نهديها، عزيزة المحبّة والدفء، عزيزة الأمل، عزيزة انتظار الغد الغض في عمرها اليابس.

تناديها أمّ أنس، فتقطع تدافع الصور في مقلتيها، لتقف إلى جانب ابنتها، تستقبل التهاني من رجال العائلة، وتتناول من يديها نقود النقوط.

سعيدة بأمومتها وقد بدّد قربها من ابنتها شجنها، فكما يذهب الحزن بالفرح، يذهب الفرح بالحزن! تبتسم في وجوه القادمين، رغم رعشة القلق في أعماقها من لقاء أبيها على هذه المنصّة، وقد بدأت فقرة تهنئة العروسين، وتقديم النقوط لهما.

سيكون عليها أن تبتسم لأبيها، أن تصافحه، أن تردّ عليه المباركة، وربما ألزمها بتقبيل خديّه، كانت ياسمين المقدسيّة تختبئ في ياسمين الأمريكية، لتواجه اضطراب الموقف، ولكنّها هذه المرّة، ومن قبيل الاحتياط، غلّفت ياسمين القابعة فيها بأوراق السولفان كي لا تفلت منها، تمارس حيلتها الدفاعيّة الأزليّة، تنظر في البعيد، وتثبّت الابتسامة على وجهها كما تثبّت تسريحة الشعر بمشابك حديديّة سوداء، وتمارس البروتوكلات الاجتماعيّة كما يجبّ، وكمومياء جوفاء من الداخل، لم تنظر في عيني والدها حين تقدّم، وحافظت على الابتسامة الرسميّة ذاتها، لم تسمح لكفها بالارتعاش، صافحته بيدٍ خشبيّة، لا توصل أيّ حرارة بينهما، وتنفست الصعداء لحظة استدار ليمضي، تسترخي ملامحها قليلا قبل أن يهوي قلبها فجأة، ويتهشّم، وتبتلع صرخة مدويّة، قذفت بها في أحشائها: أبي من جديد!

هذه المرّة، ارتجفت أوصالها، وسكنها الذهول، لولا اسناد يونس الواقف إلى جانبها على المنصّة في الوقت المناسب لانهارت قواها، ألقت إليه بسؤالها المذعور، وهي تشير إلى الرجل القادم للتهنئة: أبي من جديد؟!

فيحتضن أصابعها المرتجفة بكفّه، ويهمس لها: هذا أخوك محمّد.

ألأن المفاجأة أربكتها؟ اندكّ قلبها تحت سطوة الندم، كيف أعادها حضور أبيها كما كان قبل ثلاثين سنة في وجه أخيها لأبيها محمّد إلى الماضي، لقد فكّ حضوره الحبال عن معصمي ياسمين المصلوبة في أعماقها، لقد قامت! تلك الفتاة حبيبة أبيها قامت من صليبها، ونزعت عنها أوراق السلوفان، قامت لتبكي أباها بعد كلّ هذا العمر، وتسمعها تنتحب في قفصها الصدريّ وتقول: أبي، أبي المحبة، أبي السكاكر المخبأة في جيب قميصه، فتضع كفّها على فم ذاتها المنتحبة فيها، وتقول لها: ليس الآن، يجب أن يمرّ الحفل على أتمّ وجه. رغم أنها بعد تلك الهزّة العنيفة التي ضربت أعماقها، لم تعد تدري كيف سارت الأمور في الحفل، ولا كيف تصبّرت حتّى تقبلت التهاني.

انزوت في آخر القاعة متكومةً على نفسها، وقد ثبّتت الابتسامة ذاتها على وجهها، فيما تندب في أعماقها: يا لها من خيبة أن تكتشف بعد ثلاثين سنة، أنّك كنت مختبئاً خلف ستارة قصيرة وأن قدميك الداميتين، كانتا دائما مكشوفتين للجميع، دون أن تعلم! القهر هو أن تكتشف بعد ثلاثين سنة أنّك بالغياب لم تقتل الحزن، بل قتلت أحبّ الناس إليك كمداً، وأنّك فيما كنت تتألم، كنت تعضّ على قلوبهم بشراسة!

ترى كم تألّم أبي في صمته؟ كم مرّةً اشتاق لسماع صوتي؟ كم مرةً استحضرني طفلةً وبكى؟ ملعونة أنا! جلبت الشؤم والعذاب لكلّ من أحببتهم، فمن ينتزع هذا القلب من صدري ويريحني؟

صارت في عجلة من أمرها، تريد أن تختلي بنفسها، وكأنّها ستختلي بكلّ الأرواح المدفونة في أعماقها منذ ثلاثين سنة، وتنتشل جثثها لتبعث فيها الحياة من جديد.

وعندما اجتمعت العائلة لالتقاط الصور العائلية في نهاية الحفل، ناداها أبوها، وحين قال: ياسمين، كان صوته عاتبا، فُبعثت في قلبها الرهبة القديمة، قالت بكل هشاشتها: دعني أوصل ابنتي إلى الفندق أوّلا. قال: سأنتظرك حتى تعودي.

أمام فندق (الإنتركونت ننتل) في أريحا، احتضنت ابنتها بذهن مشتّت، وتشبّثت بكفّ يونس فقد مادت الأرض في أعماقها، وضربت الزلازل غرف قلبها الأربعة.

الدم ليس ماءً

تدخل السيارة شعفاط، فيرتجف قلب ياسمين الجالسة إلى جانب يونس، يقودهما محمود، وتنظر إلى الساعة باستغاثة، تقول في نفسها: إنّها الثانية عشرة، أرجو أن يكون أبي قد غادر.

تنزل باب بيت أبي يوسف مسرعةً، كمن يفرّ من مطاردة، فيستوقفها صوت أبيها على الباب مباشرة: أنا بانتظارك.

فتقول بتلقائيّة: ظننت أن الوقت تأخّر.

- أنا بانتظارك منذ ثلاثين سنة يا ابنتي.

لا تجد ما تقوله، ويتسارع نبضها، فيقول يونس: أهلا بك عمّي أبا إدريس، تفضّل.

فيردّ بثبات: زاد الله فضلك يا أبا عمر، أستأذنك بالانفراد بابنتي هنا.

- طبعا، يا عمّ خذ راحتك، تفضّلوا هنا في الساحة، سأخبرهم ألا يزعجكم أحد.
- شكراً لك.

يغادرهما يونس، فيخفض نبرة صوته: إلى متى يا ابنتي؟

لا تجد جواباً، هي لا تعرف إلى متى، هي تهرب فقط، ربّما كان من المناسب أن تقول: إلى آخر العمر، لكنّها قالت: لا أدري.

- لا تدرين ماذا؟

- لا أدري كيف لقلبي الضعيف أن يحتمل السماء التي تكوّمت وهوت على جبال الحزن التي ارتفعت في أعماقي، موجوعةٌ أنا يا حاج، أمام أوجاع كالتي تسكنني يستسلم الإنسان للموت! أشعر بالخيبة تندفع في أعماقي كصخرة كبيرة تهوي في نفق ضيّق، فتضرب جوارحي بقوّة، أنا أهرب لأنّني لا أقوى على احتمال كل هذا الألم داخلي.
- ألقيه في قلبي وسأحتمله من أجلك!
- أبي.
- يااااه يا ياسمين، أخيرا ناديتني بعد ثلاثين سنة!
- لا تتعجّل، أنا أرجوك أن تتركني أغادر بسلام.
- هل أنت واثقة أنّك ستغادرين بسلام؟ أسمع طبول الحرب تدقّ في صدرك، وأراك القتيلة والجريحة والأسيرة والمشرّدة، أنا لا أطلب منك شيئا يا ابنتي إلا أن تمنحيني الفرصة لأمنحك بعض الرضّا، لقد تعذبتُ ثلاثين سنة من صمتك وغربتك وبعدك يا ابنتي، أنت اليوم أمّ، أمٌّ ثكلى، تعرفين تماما معنى أن يفقد الإنسان فلذة كبده، ولعلّك تعرفين أنّ موت الأبناء أهون على القلب من غيابهم وهم أحياء، وغيابهم وهم يتعذبون أصعب من غيابهم وهم سعداء، وحين يطاردنا شعورنا بالذنب تجاه أبنائنا فتلك هي التعاسة الحقّة.

صامتة ذاهلة.

يستدرك: ليتك تعرفين كم يعذّبني ذهولك هذا! لن أطلب منك أن تقولي أيّ شيء، أريدك فقط أن تعرفي أنّني لا أقلّ عنك عذاباً، وأنّك عاقبتني بصمتك وغيابك طوال ثلاثين سنة ضِعفيْ ما أستحقّ، إنّني اليوم أمدّ لك

يدي لنتصالح مع أيامنا الماضية، أنا رجلٌ على حافّة قبره كما ترين، لا رجاء لي في هذه الدنيا إلا أن تمنحيني الفرصة لأمنحك السلام الروحيّ.

صامتة لا يفارقها الذهول.

- سأذهب الآن، وأنا أتمنّى أن تبقي لبعض الوقت بعد مغادرة زوجك وابنتك، أريد أن أشبع منك قبل أن أموت، وإن شئت أن تذهبي فسأتفهّم الأمر، تصبحين على خير.

لا تردّ.

****

لا شيء يقتل الكبرياء كالألم الشديد، وحده يجعل المرء يتوسّل الاحتضان ممّن فرّ من أحضانهم ذات كبرياء!

أمام ألمها، تسمّر يونس خلف باب الغرفة من الداخل، لأوّل مرّة منذ ثلاثين سنة، تبكي هذه المرأة المكابرة بهذا الضعف! اندهش من إقبالها عليه هي المحجمة دوما، ترى هل فكّ والدها وثاق روحها وأطلقها إليه؟ وكأنّما تحرّرت من عبوديّة الجسد المشوّه، وعقدة المكابرة، تدفن رأسها في صدره، وتلتصق به، تتجاوز الحذر من انكشاف حجم ندوب صدرها، والفراغ بين ثدييها، تلتحم معه، وكأنّما تحاول الاختباء داخله، هرباً من وجع تفجّر داخلها، فيضمّها، ولا يتحرّج من وقوع كفيّه على ندبة في ظهرها، يجذبها إليه بقوّة، يمسح شعرها، يقبّل دمعها، ويصلّي في أعماقه لتطول اللحظة، أخيراً رست روحها التائهة في مينائه، واستسلمت له، بكلّ ما لدموع النساء المكابرات من ألقٍ وعزّة!

تركها بين ذراعيه حتى تململت، وهمّت بالابتعاد لتجلس على طرف السرير، فجثا أمامها: ماذا هناك؟

- لا أعرف كيف أعمتني أحزاني عن رؤية حزن أبي لغيابي طوال هذه السنوات، كنت كلّما شعرت أنّه يتعذّب من غيابي أشعر أنّني قوية، لقد كنت أتغذّى على عذابه، فإذا بي مجرّد لعنة جلبت الشقاء على كل القلوب التي أحببتها وأحبتني.
- ليس صحيحاً، لقد احتملت كثيراً يا ياسمين، كنت تديرين معركتك مع وجعك.

صامتة.

الحزن يذهب بالألم، ففي الألم شيءٌ من التمرّد، وفي الحزن بعضٌ من التسليم والإذعان، فتذعن ياسمين، وتزيح القيح عن قلبها، وتبوح ليونس برغبتها في البقاء لبعض الوقت في البلاد، وبحاجتها لطيّ الصفحات المفتوحة للألم في أعماقها.

- ستبقين عند أهلك؟
- أفكّر في هذا.
- ابقي بقدر ما تشائين، المهم أن تعود لي ياسمين في النهاية.

كانت ليلة تحسب على السعادة في عمر عاشقٍ ظامئِ الفؤاد كيونس، وتحسب على الوجع الكبير في عمر امرأة ذبلت حزناً كياسمين!

****

على غفلة من القلب المشتّت بين الحكايا باغتها الصباح، فتلعثمت أفكارها، تتمهّل لتعيد ترتيب المشهد وهي تحدّق بالسقف الذي بدا لها غريباً، تمرّ بها أحداث الأمس، فتتذكّر لقاءها بأبيها، وتسحب نفسها خارج الغرفة، وتذهب مباشرة إلى غرفة البنات، قبل أن تتوقّف بالباب، وتضحك وهي تقول

في نفسها: إلى أين؟ لقد تزوّجت عزيزة، وكم بدا لها الخبر مؤسفاً، ومفزعاً، وحزيناً، كم هو كئيبٌ الصباح في غياب عزيزة، ويتقمّص قلبها قلب أمّها، يا إلهي كم كانت ليلة أمي الأخيرة في الحياة بائسة! ترى أيّ حزن استبد بها ليلة زفافي، وقد تشاركت وإياها السرير الكبير لعشر سنوات، وتقاسمنا كلّ التفاصيل كأمٍّ وابنتها، وأختٍ وأختها، ورفيقةٍ ورفيقتها، كنّا لبعضنا كلّ شيء، فكيف احتملت ساعات الليل وهي تعلم أنّني كنت هنا أناضل في معركة خاسرة، وأحفر الخنادق في قلبي وأدفن أحلامي العاطفيّة مع سامر، وأزرع كوابيس مؤرّقة، وأنّني سأنبت مع الأيّام في هذا البيت الغريب كعودٍ يابس، وكأنّني منذ تلك الليلة البعيدة شخت، وشابت أمنياتي، والتهبت مفاصل الرغبة فيّ، وفقدت على إثرها شهيّة الحياة.

سأذهب إلى ابنتي أمّي هذا الصباح كما أتيتِ إلي، ولكنّي لا أشعر أنّني سأموت في ليلتي كما متِّ أنت، ترى لماذا لفظت أمّي الحياة؟ ألأنّني ابتعدت عنها؟ أم لأنّني في صباحيّة زفافي ارتميت في حضنها وأجهشت ببكاء مرّ، كنت أبتلعه طوال الليل بانتظارها؟

وترجع إلى قناعتها الراسخة بأنّ أباها حين أجبرها على الزواج بيونس، وقتل حبّ عمرها، قتل معه أمّها، وعاودتها الرغبة في تخييب أمله، وإيلامه مرّة أخرى، لعلّها بذلك تتخفّف من أوجاعها، فلماذا لا تسافر بسلام؟

تقطع عليها صراعها الصامت مع ذكرياتها خطوات أسماء، التي جاءتها تحمل لها فنجان قهوة، جلست إلى جانبها، وبادرتها: فيم كدرك؟ أهو صباح أم العروس الحزين؟ أم لقاء أبيك بالأمس؟

- أنا متعبةٌ من كل شيء، أشعر أنني منذ ثلاثين سنة لم أتحدث مع أحد.

- في الحقيقة، نحن منذ ثلاثين سنة لم نتحدث، ولديّ أسئلةٌ كثيرةٌ عالقةٌ، فهات حدّثيني.

تبتسم، وتصمت.

فتبادر أسماء: لا بأس، أحدّثك أنا: أتعرفين منذ حادثة ربيع، وأنا أشعر أنّ ثمّة حلقةً مفقودةً فيما حدث، سأكون واضحةً أكثر: أشعر أنّك غررت بذاك (السكناجي) عن قصد، وإلا لماذا اختارك دون بنات القدس ليتحرّش بك، في نفس الوقت الذي ظهر فيه ربيع؟

- هل قلت تحرّش بي؟ من أين أتيت بهذه القصّة؟

- هذا ما قالته الجرائد يومها.

- تباً لهم، كانت نسرين تعتقد أنّ السكناجيّ يطاردنا منذ أسبوعين أو أكثر، وأنا كنت أسخر من خوفها وأقول لها: كلّهم مثل بعض، كيف تعرفين أنّ هذا السكناجيّ نفس الرجل الذي ترينه في الحارة؟ كلّ الذي أعرفه أنّه في حارة الواد أمام الدوريّة الدائمة هناك، قريبا من بيت جدّي، سحبني ذاك السكناجيّ من ذراعي فصرخت، فسقط أمامي مكسور الرأس غارقاً بدمه، وقد وقع حجرٌ ضخمٌ على رأسه، فصرخت لمّا رأيته، وسمعت دويّ الرصاص في الهواء، وإذا بربيع يسقط إلى جانب السكناجيّ ميتاً، وكأنّما استحمّ بالدم! أقسم لك أنّ هذا كل شيء، لا أعرف كيف سحبوني إلى المسكوبيّة، هناك صافحت الموت مراراً، وللآن لا أفهم كيف ولا لماذا حدث ما حدث.

- يا الله! كم هو غريبٌ أمرك يا ياسمين!

- إنّه قدري التعس. تصمت برهةً، قبل أن تسألها بحذر: "وماذا عن سامر؟" نطقتها، وكأنّ حروف اسمه دبابيس تغزّ شفتيها.

- ماذا عنه؟

بصوتٍ مرتجف: ألم يتزوّج؟

- بلى، تزوّج، ولكنّه منذ رحلت لم يخلع الثوب الأسود أبدا، إنّه يعيش في حدادٍ أبديّ.

تنزل الكلمات على رأسها كطرق المطارق الحديديّة على الحديد الصلب، فتحدث صوتاً مروّعاً يزعزع ثبات الأسنان من جذورها، ويا للألم!

- كلّ هذا سببه خوف أبي من كلام الناس، ماذا ربحت أنا من حفاظه على سمعتي، إذا كنت قد خسرت سعادتي للأبد؟ والآن، وبعد كلّ العذاب الذي تجرّعته طوال ثلاثين سنة، بسبب قراراته الساديّة، يأتي ليقول لي: ابقي معي، وسأمنحك السلام الداخليّ، سأعوّضك. هل يمكنه أن يعيد لي العمر؟

- ماذا أجبته؟

- لم أجبه، أنا مشوّشة، لا أعرف إن كان من الصواب فكّ وثاق الجراح، وتركها تنزف حتّى الموت، لا أعرف هل من الخير لي أن أرحل وأنسى من جديد؟ أم أبقى وأواجه الأسئلة التي هربت منها طوال العمر؟

تطرق أسماء باهتمام، وتفكّر، ثم تقول: لو تخيّلنا أنّك ستستشيرين أمّك في هذا الأمر، ماذا سيكون ردّها؟

تسرح ياسمين قليلاً، ثمّ تجيبها: لا أعرف، أمّي كانت طوال الوقت بعد زواج أبي الثاني، إذا جاءها أغلقت الباب في وجهه، وما أن يذهب، حتى تتشبّث بالنافذة ترمقه بقلبٍ هائمٍ عاشقٍ، ثم تقضي الأيّام تلوم نفسها على تركه يرحل، وتعزم أن تستقبله إذا عاد، وحين يعود من الباب، تغلق الباب دونه، وهكذا مضت أيّامها.

- افتحي له الباب إذن، امنحيه فرصةً ليكفّر عن إيلامك، فهو برغم كلّ شيء قد منحك زوجاً وأسرة.

- أسماء، الزواج ليس أمراً مبهراً، والسعادة في الزواج ليست سوى إشاعة.

- تتحدثين عن شبع، أنت شبعانة محبّة واهتمام من يونس رغم زواجه الثاني، سَليني أنا، فأخبرك أنّ الدنيا لا تساوي أنفاس رجل تلفح عيني امرأة مغمضتين! سَليني لأخبرك عن جوع الروح طوال السنين الجافّة، وعن شقوق القلب الذي يبس حتّى تفتّت جدباً لامرأة على أعتاب الخمسين لم يرتو حقلها بماء الحياة، ثمّة عطشٌ لا يرويه ماء، لن تدركي إلى أيّ حدٍّ ينبغي أن تكوني سعيدة بزوجك وبيتك وابنتك، إلا حين تعرفي كم كانت الحياة ستكون قاسية لو كان قدرك أن تعيشيها دونهم، وأن تقضي عمرك في دوائر الشفقة الاجتماعيّة والعائليّة، والاتهام الدائم لك بالغيرة من خواتمهن، وفساتينهن، وبطونهن المنفوخة بالأطفال، وصدورهنّ الممتلئة بالحليب، بل وحتى من شكواهنّ من سهر الليالي، من أن تكوني بالخمسين، وتسكت شابتان في العشرين أمامك لأنّهن يتحدثن عن علاقاتهن الزوجيّة، والتي لا يليق بامرأة بكرٍ أن تسمعها!

ترمقها ياسمين بتعاطف بالغ: كلّ هذا في قلبك يا أسماء؟

- وأكثر! امنحي نفسك فرصة لتغفري يا ياسمين، العمر يمضي بنا، لعلك تعيشين ما بقي لك من عمرٍ في سلام داخليّ، يعوّض عليك ما فاتك من حظّ السعادة في الدنيا.

- سأفعل.

- متى تذهبون لزيارة العروسين؟
- لا أدري، ربّما عصراً حسب التقاليد.
- على بركة الله.

****

مساءً أثناء عودتها مع زوجها وإخوته من زيارة العروسين في الفندق، أدركت ياسمين إلى أيّ حدّ يختلط الحزن بالفرح في طقوس الزفاف، ولكن الفرح في النهاية يغلب، راضيةَ النفس كانت، منفتحةَ القلب على البقاء مع والدها، تشجّع نفسها كلّما خافت من فتح الأبواب على الماضي، وفكّ وثاق الجراح، بقولها: لأواجه الخوف مرّة، خيرٌ من أن أعيش في خوف دائم.

عند بوابة البيت، وفي نفس الزاوية التي انتظرها بها أبوها ليلة أمس، كان أبوها الجديد كما أسمته بانتظارها وزوجها، خاطب يونس: أبا عمر، أنا بانتظارك.

فيرحب به يونس: أهلاً بك أبا بركات، تفضّل.

تتخذ ياسمين لنفسها زاويةً محايدة، لا تتقدّم ولا تشيح بوجهها، فتسمعه يقول: أبي تعب أمس بعد زيارتكم، وأدخلناه المستشفى، أجروا له قسطرةً صباح اليوم، هو الآن مستقرّ، لكنّه يريد أن يرى ياسمين.

لم تملك إخفاء انزعاجها، رغم أنّه لم يبلغ درجة القلق الشديد، فما زال الجليد يغلف قلبها، قالت: في أيّ مستشفى؟

- في المستشفى الفرنسيّ، أبي لا يثق بالأطبّاء اليهود.

يبادر يونس: لنذهب الآن.

****

داخل المستشفى الفرنسيّ، تتحرش بها الجدران، لا شيء في هذه المباني العريقة محايد، إنّها مبانٍ عبقةٌ بالحزن، وكأنّ جدرانها اختزنت أنّات كل من مرّوا بجوارها، ذات الدرج الذي صعدته إلى الطابق الثاني قبل ثلاثين سنة لترافق أمّها في لحظاتها الأخيرة.

لحظة تقدّم أخوها محمّد ليفتح باب الغرفة التي يرقد فيها أبوها، ارتجفت أوصالها، وتحرّكت الأسلاك في ساقها المقطوعة لشدّة ارتعاشها، هنا في هذه الغرفة بالذات ودّعت أمّي في آخر لقاء، قبل أن يلحق بي خبر وفاتها بعد ساعات قليلة، يا إلهي، كيف يسبح الماضي في الأيّام كحوت ضخم، يعيق مرور سفينة الحاضر، تترك يونس يتقدّم قبلها، يقول محمد: يسمح الدخول لشخص واحد فقط، فتقول بدورها: اسبقني يا يونس.

تلوذ بالشرفة القديمة، لعلّ عراقة التاريخ في هذا المستشفى الذي يحمل معالم الدير، تسكب القداسة في روعها فتهدأ، تطلّ على القدس من الشُرفة، حيّ الشيخ جرّاح إلى اليمين، وقصر محمد إسعاف النشاشيبي إلى اليسار في آخر الشارع، وهدوء القدس الذي ليس له مثيلٌ في أيّ مكان في العالم، أمام جسر حجري يعود لقرون مضت، وقفت ياسمين تناجي الله أن يمنحها القوة، لتحتمل بعث الأيام في صدرها، وقيامة روحها من على صليب الحزن والعذاب.

تدخل الغرفة على أبيها بحذرٍ وتوجّس، لا تدري لماذا يرقد أبوها على نفس السرير الذي رقدت عليه أمّها، رغم أنّ الغرفة تتّسع لسريرين، تبادره: سلامتك يا حاج.

يعاتبها: أين ذهبت كلمة أبي؟

– سلامتك يا أبي.

– طلبتك لأسألك على ماذا نويت؟

- لست متأكّدة، لكنّي أظنّ أنّني سأبقى.

يردّد كلماتها بنفاذِ صبر: لستِ متأكدةً، هل تذكّرك هذه الغرفة بشيء؟

- بلى، تذكّرني بمرض أمّي الأخير، ووفاتها المفاجئة.
- تعاليْ يا ياسمين، تعاليْ اجلسي قريبا، وأخبريني كيف أصبحتِ قاسيةً هكذا؟

وكأنّما بسؤاله قد سلّ خيط التماسك الأخير، وهوت آخر الحجارة في سدّ صمودها، وانشقّ صدرها عن وجع كبير، يفتّت قفصها الصدريّ ليشرع أعماقها للريح، فتبوح دون تحفّظ: لقد تكسّرت الدنيا أمام عيني كما تتكسّر المرآة عندما غادرتنا لتتزوّج، فقد ماتت أمّي منذ تلك اللحظة، مات فيها كلّ شيء، أن تتزوج المرأة رجلا تحبّه وتتوسطهما طفلة لسبع سنوات فتلك هي الفردوس، عندما رضخت لرجاء جدّتي، وتزوّجت من ثانية ليكون لك أبناءٌ ذكور، طردت أمّي من الفردوس، فاستحالت من ملاك إلى امرأةٍ شرّيرةٍ ومحطمةٍ، وأحلت حياتها ضنكاً.

تتنهد قبل أن تكمل حديثها: أنا لست قاسية، حياتي هي القاسية، رحيلك، وغضبُ أمّي الأعمى لذلك، وحزنها العميق وكأنّما تسحب الحبّ من قعر بئرٍ معطلةٍ، لتمنحني منه قطرة، جعلني أفتّش عن سعادتي بعيداً عنكما، كان شوقي لك يفتّ قلبي، والغيرة تأكلني كلمّا لمحتك في الطريق تحمل أحدهم، فتركض قدماي رغماً عنّي بعيداً عنك، فانشغلت بالحبّ ككل البنات، وتشاغلت بحبّ سامر عن خيبتي الكبرى، فأنت أبي هو الحبيب الأوّل والجرح الكبير!

يُربّت بيده المقيّدة بمشبك قياس الضغط على ظهرها، فتختنق بدمعها، ويؤلمها التنفّس، هي الخبيرة بأوجاع الجسد، تصحو أوجاع روحها من سباتها الطويل فجأةً، فلا تستطيع أمامها سوى النحيب المعذّب.

- وماذا أيضاً؟

- منذ تركتني أبي وشيءٌ ما داخلي لا يتوقّف عن البكاء، كم حزنت لبعدك، كم حلمت بعودتك، منذ تركتنا صارت أمّي قطعةً من الحزن، لا تصدّق أنّها كانت غاضبةً منك، لقد كانت مريضةً بك، إذا ارتطمت قدمها بطرف السرير، أوجعها شيء فيها هو أنت! إذا خدشت إصبعها بسكين المطبخ، أوجعها شيء فيها هو أنت! إذا ارتفع ضغط دمها، ارتفع منسوب حبّك، وإذا ارتفعت حرارتها، غلى في دمها شوقها إليك. حزن أمّي الشديد شقّني نصفين، مكابرة أمي قتلت بهجتي، لقد عشت طوال العمر أبحث عنكما، أحمل داخلي ياسمين الطفلة المعذّبة، المصدومة منذ سقط ربيع أمامي، ياسمين التي تحمّل قلبها موت ربيع، وخمسين يوماً في المسكوبيّة، ولساني معقود، لم يؤلمني وجهي المهشّم، فقد بلغ بي الألم منتهاه، خرست، وخرجت من المسكوبيّة لأجدك إلى جانب أمّي أخيراً، فلم أفهم لماذا كان عليّ أن أواجه كلّ ذاك الألم لأراكما معا من جديد؟! وددت لو أنكما لم تقفا إلى جانب بعضكما، لو أنّك لم ترجع لتنام في البيت أثناء اعتقالي، ربما لن أجد كلماتٍ تعبّر عمّا جال بخاطري في ذلك اليوم، لكن أن تدفع ثمناً باهظاً لتحقّق حلماً صغيراً، أمرٌ قاتل!

لماذا قامت الدنيا ولم تقعد لسهر سامر تحت شباكي يغنّي أثناء اعتقالي، في مدينة لا ينام فيها الناس؟ لماذا لم يرق قلبك لعاشق أصابته من شدّة

الأسى لوثة جنون، لماذا تنكّرتَ في زيّ الوحش وجلدتني، لأتزوج من رجل لا أعرفه، وحرمتني من صدر رجل كان سيرمّمني بعد كل ما حلّ بي؟ لماذا وأنت أبي؟ لماذا ماتت أمي بعد ثلاثة أيام من زواجي؟ أنا لم أغب عنك عتباً عليك، غبت لأنّ روحي كانت رهينة العذاب.

هدأت قليلا، هدأت كثيرا، صمتت، تذكرت الموقف الذي هي فيه، رفعت إليه بصرها، كان يبكي!

لعنت نفسها: أبي!

ابتسم من بين دموعه: أنت طفلتي العجوز يا ياسمين، أو عجوزي التي ما تزال طفلةً معذّبة، ولم تفق بعد ثلاثين سنة من صدمتها.

- هو كذلك أبي، لم أفق من صدمتي.
- لأنّك هربت بعيدا، ولم تواجهي، ستبقين إذن لنواجه الماضي معاً؟
- الأصل أنني هنا لأطمئنّ على صحتك.
- سأكون بخير حين تبتسمين من قلبك.

تبتسم.

- لا، ليس هكذا يا عجوزي البائسة.

فتضحك.

حين تقرّرين أن تسيري معي في رحلة البحث عن السلام الداخليّ، فقط أخبريني.

- اعتبرني أخبرتك.
- إذن، بعدما يسافر زوجك وابنتك، أريدك أن تقضي ليلتين في بيت أخيك محمّد، وليلتين في بيت أخيك فضل في كفر عقب، وبعدها تأتين

إليّ في بيت جدّك في الواد. سأكون وقتها قد غادرت المستشفى بإذن الله.

- وأين الماضي في بيت محمّد وفضل؟ أنا لا أعرفهم حتى؟
- هل ستثقين بي وتتركي لي نفسك أم سترهقينني بالأسئلة؟
- كما تشاء.
- رضي الله عنك.

****

بعد أسبوع .

في الطريق إلى المطار، تتكئ عزيزة برأسها على صدر أمّها، وأنس منزوٍ يراقب النافذة. فبين القدوم من المطار، والذهاب إليه، تغيّر الحاضرون والغائبون في حياة عزيزة، واختلفت موازين القلب. أنس الآن باقٍ، وياسمين الغائبة. أنس يودع البلاد عبر النافذة، وياسمين تحدق داخلها بقوّة.

انتظار الطائرة، وكوب القهوة الشائع في المطارات. والكثير من الترقّب. لأوّل مرّة تبتعد عزيزة عن أمّها: أمّي متى ستعودين؟

- قد تأخذ الأمور بعض الوقت.
- كم من الوقت؟
- لا أدري.

وتودعهم، تشدّ على يد أنس: اعتن بعزيزة. وتعانق ابنتها، وتدفن كفيّها في كفيّ يونس الذي ضغط عليهما بحنوٍ، وقبّلها على جبينها: سأنتظر أخبارك، وابتسم قبل أن يلفّه الممرّ الطويل.

تدور عجلات السيارة لتعود بها إلى بيت أخيها في كفرعقب. فلا يعلق في قلبها سوى القلق، تلك الحَرقة التي تهوي من الأعلى إلى الأسفل، ذاك الإحساس العميق بالخوف المتستر بالشجاعة المتقشفة. وتلك الحوارات الداخليّة الصامتة: عليّ أن أتخلص من الماضي ليس فقط لأعيش، بل لأستطيع الموت. أنا العالقة في الحزن الكبير، كيف سأخرج إلى الموت إن لم أشفى من أوجاع الحياة.

الفصل الثاني

جسر الماضي

يُلحّ محمد على صالح ومحمود ليدخلا لشرب فنجان قهوة، وتتسمّر ياسمين على الكرسي في غرفة الضيوف، وقد سقطت مناعتها الداخلية أمام وجه أخيها محمد مرة أخرى، كيف يمكن للإنسان أن ينجب شخصاً يشبهه إلى هذا الحدّ؟

- يا جماعة اتفضّلوا.

ويحمل نفس الصوت! عاد أبوها في محمد شاباً يلحّ على أصدقائه بالدخول، وعادت هي طفلةً ذات سبع سنوات، تضاءلت السنوات، وانسحبت هشاشة قلبها العجوز، وحلّت مكانها إشراقة الطفولة، ولكم يوجع إشراق البهجة في قلب ضامر! وكأنما يشقّ اللحم بسكين ثلم، يقطع عضلة القلب نسيجاً نسيجاً ببطء شديد.

كمن يصحو من سكرة، جلست ياسمين تحدّق فيه، لم ترد على كلماته المجاملة بغير الإيماء، وشيء يشبه الابتسامة، تتأمله، له نفس العنينين ولكن ليس نفس النظرة، نظرة محمد مرحة، ومتوقّدة، كان أبوها أقلّ مرحاً وتوقّداً، كان رجلاً جاداً، سعيداً، ولكن دون بهجة وصخب، لم تستمع ياسمين لحواراته مع صالح ومحمود، فقد انكبّت على أعماقها، حتى نسيت وجودهم، إلى أن قام محمد يودّعهم، وعاد ليمازحها: مالك يا صاحبة الجلالة؟

فضحكت: كن طيباً يا أخي، فما أنا سوى جرح يلبس ثوباً ويمشي ويعيش.

ابتسم وقد فاجأته إجاباتها: سأعرفك على الجيش، وفتح الباب ونادى: تعالوا هيا.

حضروا تلفهم الحماسهم وكأنهم كانوا بانتظار النداء، وقدّمهم لها: زوجتي الغالية سناء، ابنتي هناء، وابنتي وفاء، ابني عبد الله، وبركات في العمل ولم يعد بعد.

صافحتهم جميعا، قبّلتهم جميعا، ولم يلبثوا إلا قليلا، حتى صفّق لهم محمد: يلا يا حلوين، انسحبوا، لأجلس مع أختي.

وانسحبوا، فلبس محمد الجديّة، واتخذت عيناه نظرة أبيه، فأدمى قلبها، وشرع يقول: خبّرينا عنك، كيف أنت؟ لماذا قررت أخيراً أن تتعرفي علينا؟

– هذه رغبة أبي كما تعلم، هو طلب مني الحضور عندك.

رد بأسى ظاهر: آه، نعم، أنت هنا تنفذين رغبة أبي فقط، بالمناسبة، وأنا كذلك! لكني أخرج عن النص وأحاول أن أكون ودودا، ربما كان عليه إخبارك برغبته في أن تكوني ودودة معنا.

أطرقت برهة، ثم تنهدت، وطفقت تقول: لم يكن الأمر سهلاً يا محمد، فأنا قبل كل شيء أنثى، قد يغفر الأبناء زواج آبائهم من ثانية، ولكن من الصعب على الفتاة أن تفعل، فكيف إذا كانت الفتاة طفلةً وحيدةً لسبع سنوات، وما بينها وبين أبيها من حبّ، أكبر من أي حبّ آخر في الكون، عندما نحبّ كثيراً لا نغفر أخطاء أحبابنا بسهولة.

تنهد بدوره: تعرفين إذن أنّه كان يحبّك أكبر من أي حبّ في الكون، ولم تتواني عن ذبحه بسيف الحبّ، كم أنت قاسيةٌ يا ياسمين!

أغاظها: هالو! من تحسب نفسك لتحدثني هكذا؟

فيردّ بمرحه: أحسبني أخاك، الذي تعذّب كثيراً لعذاب أبيه بسبب غيابك غير المبرّر لثلاثين سنة، بربّك! في حدا بزعل ثلاثين سنة؟

– وماذا تعرف أنت عن زعلي لتقيّم إن كان يستحق أن يمتدّ ثلاثين سنة أم لا؟

– أنا أعرف شيئاً واحداً، أننا حين ترتبط سعادة أحدهم بنا، فليس من حقّنا أن نتمادى في البحث عن راحتنا، كان أبي يستحق أن تكسري حلقة غضبك وحزنك من أجله.

تسكت برهة، ثم تقول: تتحدث وكأنني كنت أستمتع بينما كان يتألم، لو أنك تعرف كم هو صعب أن يصحو المرء ليجد نفسه في الثامنة والأربعين من العمر، ولا يتذكر أنه عاش!

– ومن منا عاش عمره يا أخيتي؟ كلنا دفنا أحلامنا ومضينا، الحياة تجرّعنا الكثير من القهر، والقويّ هو الذي يصمد.

– هل تحاول القول بأنني ضعيفة؟

– بصراحة؟ نعم.

تخذلها العربية، فتردّ عليه بالإنجليزية: لا أدري من تظنّ نفسك، لتسمح لنفسك بتوجيه كلام كهذا لي؟ هل هذه هي الحكم الخالدة التي أراد لي أبي أن أسمعها في هذا البيت؟

– أرأيت؟ أنت الآن في حوار معي، ما دخل أبي بما أقوله لك، ولا تجدين عليه رداً؟

– لا أجد رداً؟! كم أنت مغرور! بالطبع لديّ ردود، وليس فقط ردّ! لكني الآن أناقش حدود الأدب بيننا التي أرجو ألا تتجاوزها.

– طيب، تراجعت، هات ردودك لأرى.

تنظر إليه طويلا، حتى ابتسم، فتبادره: ماذا تريد؟

– أريد أن أسمع ردّك، ووجهة نظرك، فيما كنت أقوله.

- رغم أنني لست مضطرةً لأن أوضح لك أيّ شيء، ولكن لا بدّ وأنّك تعرف أنّ ثمّة أموراً مفصلية في حياة الإنسان، أموراً مثل عدم الاستقرار الأسريّ في الطفولة، وأنّ أثر مثل هذه الاضطرابات يكون طويلاً في العادة، إنّ الإنسان قد يتجاوز أموراً مثل الحرمان الماديّ أو الفقر بسهولة مع الوقت، لكنه لا يتجاوز فكرة أنه تعرّض للتخلّي الطوعيّ عنه من قبل أبيه، فقط لأنه أنثى! ثمّة جراحٌ يكون أثرها أبلغ من جراح، ومثلها جرح العاطفة، قد يتعامل الإنسان مع الخذلان العاطفيّ، أو الرضوخ العاطفيّ للظروف، لكنّه لا يتجاوز بسهولة أن يتدخّل طرفٌ ثالث، فيحول بينه وبين حبّ حياته، بل ويجبر فتاة على أن تكون زوجةً لرجل لا تعرفه، ولنقل: لا تريده، لا أعرف للآن ما الفرق بين إجبار فتاة على الزواج، وبين البيع في سوق النخاسة، كان الأمر قاسياً!

تتنهّد قبل أن تواصل: ربما لو لم تمت أمّي في ثالث أيام زفافي، لكان تجاوز الأمر عليّ أسهل، ربما لو لم يسافر يونس بعد موت أمّي بثلاثة أيام لكان تجاوز الأمر أسهل، ربما لو لم يجنّ سامر، ويمكث في المستشفى شهورا يتعالج من بؤسه وكآبته لكان تجاوز الأمر أسهل، ربما لو لم أسافر أنا إلي أمريكا بعدها بسبعة أشهر، لكان تجاوز الأمر أسهل، لقد شعرت أنّ أبي لم يأخذ منّي حبّ حياتي وحسب، بل لقد قتله، وأخذ أمّي، وصديقاتي، ووطني، حتى إنني في قرارة نفسي أقول ربما لو لم يزوجني ليونس لما كنت سافرت، ولما فقدت طفلي في حادث سيارة في شوارع أمريكا السريعة.

– انتهيت؟

– مؤقتاً نعم.

- صحيح ما تقولينه، صحيح أنّ الأسرة والعاطفة أعمق تأثيرا على الإنسان، ولكنّي أريدك ان تتجاوزي الأمر، وأن تتطلّعي إلى القادم، الذي يُمكنه أن يكون بقليل من الغفران أجمل.
- وأنا هنا لأتجاوز الأمر، ولولا وجود هذه النيّة، لما احتملت فظاظتك.
يضحك: الله يكثر خيرك يا صاحبة الجلالة.
- خير الله، لم تقل لي ماذا تعمل؟
- أنا بالأصل محاسب، لكن الحياة صعبة، فقررت أن أصبح طبّاخاً، لم أوفّق في عملي كمحاسب، وأكسب جيدا من الطبيخ.
- وكيف تشعر إزاء هذا الأمر؟
- ليس في القدس متسعٌ للمشاعر، هنا نحن نعيش، قدرنا أن نعيش، رسالتنا أن نعيش، نضالنا أن نعيش وأن نبقى، وإذا عشنا انتصرنا، أنا أفكّر كيف سأطعم أبنائي، وألبّي احتياجاتهم، وإذا نجحت في هذا فقد حقّقت الرضا عن النفس.
- دعني أتذوق طبيخك إذن.

وضحكا عالياً، ويفتح الباب لينادي أبناءه الذين يسميهم "الجيش"، وقد هدأ قلبها وكأنّما استراح قليلا من ثقل الكلمات.

ما أجمل الأجواء العائلية! فتهمس لقلبها: ربما كان أبي على حقّ، كانت سعادتنا ستصبح أكبر لو كانت أسرتنا أكبر.

ما أسرع ما تلغي روابط الدم حواجز الغربة! أنها مقدمة جيدة لتقول لشخص تراه لأول مرة: أنا قريبك، بمعنى: ثق بي، وكن على سجيتك.

على المائدة ذابت الغربة بينها وبين أخيها وأسرته، وفي سهرتها معهم لم يبق بينهم حدود، وكأنّما تعرفهم منذ سنين.

سهروا حتى أنهكهم السهر، فأوعزت سناء إلى ابنتيها لتجهيز مكان مناسب لنوم ياسمين، التي سرعان ما لحقت بهما، لتجد هناء تدسّ غطاءً بين سريرين لتملأ الفراغ، فيصبحان سريرا واحدا كبيرا: اختاري لنفسك زاوية، ولا تقلقي أنا سأنام في الوسط، هل تفضّلين جهة الحائط؟

ابتسمت، وأومأت أن لا. ساقي المقطوعة لا تساعدني لأسحب نفسي كلّ هذه المسافة، وانتظرت حتى اندسّت الفتاتان في الفراش، واستلقت على طرف السرير.

بانتظار النوم، تفقّدت هاتفها المحمول، وجدت رسالة قصيرة من عزيزة: ماما، لقد وصلنا، البيت حزين جدا في غيابك، نحن بخير.

وأخرى من يونس: أوّل مرّة أشعر بالغربة في أمريكا، أشعر أنني تركت روحي في البلاد.

استفاضت في الرد على عزيزة، فهي تعرف معنى أن تجد فتاة نفسها في حضن رجل بعيدا عن أمها، فاسترسلت تطمئنها، وتطمئنّ عليها.

وأرسلت رسالة مقتضبة ليونس: أنا في بيت أخي محمد، بناء على طلب أبي، لم أجد السلام الذي وعدني به، لكنني لست في حرب.

وألقت نظرة على الفتاتين إلى جانبها، فسرى الدفء في أوصالها، هي التي عاشت وحيدة، وأنجبت ابنة وحيدة، لم تعرف معنى لمة العائلة، ويا لها من حضن كبير رائع!

أن تضم سريرين ليتسعا ثلاثة أشخاص، هذه هي الأسرة!

****

صباحاً، وهي تقفز على ساقها الوحيدة، وتحمل الاصطناعية بين يديها، التقت بركات، الابن البكر لأخيها محمد، والذي غاب عن لقائهما أمس، لأنّه كما قالوا كان في العمل، فيبادرها: صباح الخير، أنت العمة ياسمين، أليس كذلك؟

- وأنت بركات؟

صافحها، وشدّته لتقبّله فارتبك، فتخلّت عن الفكرة في منتصف الطريق، جلست تنتظر أمّ بركات التي ذهبت تعدّ القهوة، فتسأله: أين أبوك؟

- أبي يذهب إلى العمل في الرابعة فجراً، فعمله في حيفا.
- وأنت؟
- أنا أعمل في القدس، من الرابعة عصراً حتى الثانية عشرة ليلاً.
- الله يعطيك العافية.
- عافاك الله، جدّي كان يحبّك كثيراً، وقد أخبرني عنك بعض الأمور.
- مثل ماذا؟
- مثل أنك رقيقة ولطيفة، وتحبّين الأرز، وبعض القصص عن شقاوتك وأنت شابّة.
- وهل كنت شقيّة؟
- قال جدّي أن أحدهم جنّ بحبّك، وكان يسهر الليل يغنّي تحت شبّاكك.
- آه من جدّك.

ويضحكون وهم يرتشفون قهوة الصباح على مهل.

أمضت ياسمين الليلتين في بيت محمد، وقلبها يردّد:

- العائلة تمنحك حضناً كبيراً، وإحساساً غامراً بالدفء يستحقّ التضحية، ولكن ليس على أنقاض عائلة أخرى.

السجن

السياسة كما الحبّ تنهش قلب عاشقها، وتقضّ مضجعه، فيحمل حمزة لحيته على وجهه، ويحمل مالك شعره كذيل حصان على ظهره، ويمضيان مع جموع الشبان إلى الاشتباك على بوابات الأقصى، يعرفون بالخبرة أصول العمل النضاليّ، بعد انتهاء ركعتي الجمعة، وقبل أن يصلوا ركعتي السنة البعديّة، يخلعون قمصانهم، ويتجهزون بخطّة مسبقة، بملابس داخلية علويّة متشابهة، يتلثمون بالكوفيّة، يرتدون سراويل الجينز ذات درجة لون واحدة، ليختفوا بين الجموع بعد انتهاء الاشتباك، وبسرعةٍ يسير بعض الملثمين بين الجموع التي أنهت الركعتين، فيحوّلون خروجهم إلى مسيرة، يبدأون بالهتاف الذي يلامس قلوباً مرهقة من نشرات الأخبار، وتستعر غيظاً من دخول المستوطنين المستمرّ إلى باحات الأقصى، فتنخرط معهم، ويتجاوز هتافهم قلوباً أخرى، قلوباً تدور بأرقها اليوميّ، وتفاصيل الحياة الصغيرة، فتسلك طرقاً جانبية عبر (اللواوين) [١] أو من (تحت الشجر)، ليخرجوا من الأبواب قبل أن تبدأ حفلة الاشتباك على إيقاع قنابل الصوت وقنابل الغاز، والرقص اختناق!

ويرقص مالك اختناقاً مع الراقصين، ويجرّ نفسه بصعوبة إلى مركز الإسعاف داخل باحات المسجد، ويشاهد بأذنيه ما يجري في الباحات، يعرف من الأصوات المتداخلة أنهم يرمون الجنود بالأحذية التي تقع تحت أيديهم، وتعلو التكبيرات، فيعرف أن الالتحام غير المتكافئ قد بدأ بالانحسار، تتعالى التكبيرات أكثر، فيعرف أنهم رحلوا، وتصله الأسئلة الساخرة عن فردات

[١] اللفظ الشائع للمرات الجانبية في باحات الأقصى

الأحذية، فيعرف أنهم بدأوا بتنظيف المكان، وتترامى له الهمهمات، فيعرف أنّ المصلين بدأوا بالتوافد لصلاة العصر.

ومع صلاة العصر، يتماهى مالك وحمزة بالمصلين، ليخرجوا مع الجموع المغادرة، لتسقط ركلات الجنود على البوابة على حمزة، فتوقعه أرضا، قبل أن يربطوا يديه، ويدفعوه أمامهم إلى مركز الشرطة، فيلتقط له مالك صورةً وهو يبتسم، تلك الابتسامة التي تّعلّم المقدسيون مع اختبارات الألم كيف يرسمونها في اللحظة المناسبة ليختزنونها في صورة تُبرّد قلوب الأمهات القلقة، وتغيظ الجنود المغرورين بعتادهم.

ابتسامته هوّنت صدمة أمه قليلا، حين أطلعها مالك عليها، وهو يقول: مبسوطٌ ابنك على الاعتقال. ثم يتمتم: ادعيله الله يثبته. فتضحك بريبة لكلماته، وتسري حرقةٌ كلسع السياط في أحشائها توجعها، ورغم كل اللامبالاة والاستخفاف الذي أظهره مالك، ليطرد عنها الحزن، بكت حتى تورّم قلبها، وهل تملك أمٌّ في مثل هذا الموقف ألا تبكي؟ لا شيء أمامها سوى الانتظار، الانتظار قاسٍ، يفتح فكيّه على الاحتمالات الكثيرة، ليصنع البؤس المعشش في ثواني الليل.

مساء ذلك اليوم، شاركت ياسمين أسرة أخيها محمد استقبالهم لابنهم بركات، الذي عاد متكئاً على كتف عمّه فضل، بعدما تعالج لبضع ساعات في عيادة الأقصى من ضربة هراوة قويّة على رأسه، وغادرتهم رفقة فضل إلى بيته.

وقفت بباب الشكّ من جدوى هذا السلام الذي يريد لها أبوها أن تجده في بيوت أبنائه الذين لا تستشعر إخوّتهم، ولا يتحرّك في صدرها نحوهم غير الودّ العام، والتقبّل، وبعض الاستحسان، ورغم بعض الدهشة التي

تعتريها إزاء سقوط حواجز الرهبة الاجتماعية بينهم، وقدرتهم على التعامل معها كأخت، إلا أنها تعتبر أنّ شعورها نحوهم ما زال محايدا.

تدخل بيت أخيها الأصغر فضل لتواصل ترميم ماضيها، وتعيد حياكة علاقتها بأسرتها، بعد أن مزّقتها سنوات الجفاء والغربة، ولم يكن لقاؤها بفضل بفتنة لقائها بمحمد، فالشبه بينه وبين أبيهما لا يكاد يذكر.

غياب القلق عن قلبها جعلها تبصر الجليد المتكوّم بين فضل وزوجته، حتى إنها لفرط الهدوء الذي لفّها، سمعتهما يتراشقان العتاب صمتاً، وسرعان ما استأذنت زوجته متذرعةً ببكاء الصغيرة، لتبقى ياسمين قبالة فضل، ذا الوجه المهذّب، والملامح البائسة، عيناه عميقتان حدّ البكاء، مثقلتان بيأس متنكّر بثوب العناد والعزيمة، بدا لها رجلاً قد أثقلته التجارب، تعتري ذراعه اليسرى رعشةٌ لا إرادية، فيمسك كفّاً بكفّ، وكأنّما أخجله تفرّس ياسمين بذراعه المرتعشة، وقال بصوت مبحوحٍ خائرٍ: آثارُ تعذيب.

- أيّ تعذيب؟
- ألم تكوني في المسكوبيّة لخمسين يوماً قبل ثلاثين سنة؟
- بلى.
- إذن تعرفين ما هو التعذيب.

أهو خبر اعتقال حمزة الذي ألقاه لهم بركات لحظة وصوله إلى البيت مَنْ أذكى في قلبها الذكرى؟ أم ذكر فضل للأمر الآن؟ أم أنّ المرء لا ينسى أبداً الأيام التي يقضيها في السجن؟ تصمت، وكأنّها تمعن في نبش الماضي كمن يفتّش عن مزق ليرتقها، كي لا تتسلّل منها حرارة الألم، فتحرق الأمل بالأيام القادمة، فاسترسلت تقول: ربما، لا أعرف، فقد كان ذهني مخدّرا، وكانت تلك من نعم الله الغالية، أذكر أن وجهي تهشّم، وأنفي كُسر، ووجع كعبث النصال

في زندي من قسوة القيد، أذكر أنني كنت في مساحة كونية ثالثة لاهي في الدنيا ولا في الآخرة، لا هي يقظة، ولا هو نوم، مساحة يمدّ فيها الألم لسانه ليهزأ من هشاشة جسدي، فينتصر لي الخدر، ويسكّن نهاياتي العصبيّة كلها، في تلك المساحة يغيب الوعي، ويتخدّر الإحساس، وكأنّ الثلج ينمو داخلي، فيجمد فيَّ كل شيء، عندما يتعرّض الإنسان لعذاب فوق ما يطيق، تختل نهاياته العصبية، وتعجز عن نقل رسائل الألم للعقل، فيصبح الوجع أمراً مبهما، فنصمد في وجهه!

تصمت قليلا قبل أن تردف: تحدثّت كثيرا، ربما منذ ثلاثين سنة لم أتحدّث عن هذا الأمر حتى مع نفسي، فاعذرني. وتستدرك: لم تقل لي، أيّ تعذيب؟

فيهزّ كتفيه بعدم اكتراث: كلبشات الأصابع لاثنتين وسبعين ساعة، معلقاً من أصابعي بيد واحد، وموقوفا على أطراف أصابع قدمي.

- وكيف احتملت؟
- هو ذاك الخدر، نعمة الله على عباده المنكوبين، يغيب الإدراك بالألم لبعض الوقت.
- ظننتني الوحيدة التي تعرف الخدر.
- الخدر، يعرفه كل من عايشوا التعذيب في السجون، في تلك اللحظة التي تتعالى فيها جبال الألم، وكأنّ الروح تخرج من ثقب إبرة، يأتيك الخدر، فلا تشعر بأوجاعك، وتأخذك الأفكار إلى البعيد، فتعتقد أنك تنسى ما أنت فيه، ولكننا لا ننسى أبدا، يظلّ السجن جاثماً على صدورنا، لولا الخدر!

ترتعد عضلة لسانها، كأنما انحسر الخدر، فتفرّ من الحديث عن العذاب: ما مشكلتك مع زوجتك؟

فيضحك ضحكةً مريرةً: لحقت الستّ رنا تفتحلك قلبها؟

– لا، لا أنا سألتها، ولا هي قالت، لكن من يراكما يعرف بحالكما. وأرادت أن تضيف مبررا لتدخلها، فأردفت: ثم أنا لست غريبة، أنا أختك.

– أختي التي أراها لأوّل مرّة في حياتي!

أطرقت.

– تعرفي، مرة تناقشت مع شيخ، كنا نتحدث عن قلّة عقل النساء.

تضحك: اه؟

– قال لي نحن الرجال إذا لم نكن بنفس المستوى الفكري والثقافي لا نتفق أبدا، أما النساء، فتكون واحدة تحمل شهادة دكتوراة، والثانية أميّة، حطهن مع بعض عشر دقايق، بترجع بتلاقيهن صديقات.

– وهذه قلّة عقل في الدكتورة، أم سعة عقل عند الأميّة؟

– لا أدري!

– صحيح أن النساء ينسجمن بسرعة، ولكن هذا لأنّ وجعهنّ متشابه، فإذا اجتمعت فتاة بفتاة بثتها سرّ قلبها عن حبّ معذّب، وإذا اجتمعت امرأة بامرأة، تبادلتا التجارب مع الولادة، وتربية الأبناء، وطباع الرجال، ووصفات الطعام الغريبة، تشابه الآلام يفتح أمامهنّ أبواب الحديث، فينفسّن عما في صدورهنّ، تماما كما تبادلنا للتوّ وجع السجن، رغم أننا نلتقي لأوّل مرّة.

حدّق فيها، وكأنّما لفتت انتباهه لأمر لم يفكر فيه من قبل: ربما!

– والآن قل لي ما مشكلتك مع زوجتك؟

– زعلانة عشان نزلت على الأقصى اليوم، قال خايفة عليّ.

- وهل هذا سبب للحبّ أم للخلاف؟
- عندنا في فلسطين هذا سببٌ للخلاف.
- لماذا؟ إنها تخاف عليك، أي إنها تهتمّ لأمرك، وتحبّك، ولا تريدك أن تتعرّض لأيّ سوء، فما المشكلة؟
- المشكلة أنها تتذرّع بهذا الخوف، لأنها تخجل من القول إنها خائفةٌ من الفقر.
- أيّ فقر؟ ألستما معلمين؟
- صحيحٌ، معلمان بلا رواتب منذ ستّة أشهر، وغارقان بالديون، وشهر رمضان على الأبواب.
- لماذا بلا رواتب؟
- قصةٌ طويلة.
- أحبّ سماعها.
- اسمعي يا سيّدتي، التعليم في (إسرائيل) مُخَصْخَص، يعني الدولة تفتح مدرسة واحدة في المنطقة، ثم إذا احتاجت المنطقة مدرسة أخرى ينشئها المقاولون، مقاولو تعليم، الدولة تدفع لهم معظم التكاليف ليُقدّموا خدمة التعليم بدلا عنها، وهم يأخدون أقساطاً من الطلاب، ويحقّقون أرباحا.
- تمام، يوجد شيء كهذا في أمريكا.
- جيّد، وهذا كما تعلمين يتيح للمقاولين فرصةً ليتحرّكوا بحريّة في التعيينات، وأيضا للاختلاس من رواتب المعلمين.
- أيواا، طيّب إنتو ليش قابلين؟

- عشان فِش شغل في البلد، تعرفي شو أزفت إشي بهالقصة؟
- شو؟
- إنّه ما في خيارات، يعني البديل عن المقاولين تدخّل الاحتلال من خلال أعوانه وتعييناته في التعليم، فيفرض علينا تقويمه، ومناهجه، وسياساته، والمقاولون طمّاعون، وسكوت المرء عن حقّه يكسر روحه، الإنسان لما يبيع كرامته المهنية، عشان الشيكل، صعب يرجعهم، أنا واحد من غير كرامة، وبعد الكرامة بيضلّش إشي.
- فضل، أنت محطّم، شوف شغل ثاني.

فيضحك ضحكة عالية ومريرة: شغل شو يختي؟ أنا خرّيج حبوس، إرهابي يعني، إزا مش معترفة (إسرائيل) بشهادتي الجامعيّة، ومش راضية تحطّ ختم الدولة عليها، بدّك ألاقي شغل؟

- معقول فش شغل؟
- لا في، في تنظيف حمامات، وجلي، وعتالة، ومش وين ما كان، في المصانع، أو المؤسسات الخاصّة، بس إشي تاني لأ، الحكومة ما بتشغلني، حتى لو بدّي أوقف على رسبشن في أوتيل، بيضربوا على مكتب العمل، على رقم هويتي، وبيقولولي فش شغل، ممنوع أمنيّ، وبطلع، الإرهابي ممنوع ينظّف حمّامات الغرف في الأوتيلات.
- طيّب وكيف ماشية أمورك مع المدرسة؟
- مين قلك ماشية؟ هدول جماعة لفّ ودوران، بيلعبوا بالأسماء، بيلعبوا بنصابات الحصص، بيلعبوا بالرواتب، بيلعبوا بكلشي، وعملوا ملايين من ورا هالشغلة، يعني والله العليم أنا أصلا مليش اسم عندهم.

- يعني إزا خسرت فرصة الشغل معهم يمكن ما تلاقي شغل تاني؟
- لأ مش ممكن، أكيد، وأنا إلي بعزي فيه نفسي، أنهم ما شغلوا واحد مثلي وراه كل وجع الرأس هادا إلا لأنهم بدهم يخدموا البلد، صحيح طمّاعين، بس مش خونة، بعدين أنا مش فاهم كيف معلم برفع قضيّة ع مدرسة يسَكّرها، وهو عارف أنّ البديل عنها تدخّل الاحتلال بالتعليم.
- تفكيرٌ منطقيّ.
- والسِتْ رنا زعلانة عشان انزلت اليوم على الأقصى، أنا مخنوق، لو فش (إسرائيل) كان مش هيك حالنا، وبدال مناكل بعض زيّ العرب، بدي أقاوم راس الشرّ في هالبلد.
- مهو يا خوي هي كمان مرتك وبتخاف عليك.
- رنا بنت طولكرم، عمرها ما رح تفهم شو يعني قدس!
- وشو جاب طولكرم على القدس؟
- الحبّ أعمى! هو الواحد كمان بدّه يحط (محسوم) على قلبه، ويطلب هوية الصبية قبل ما يحبّها، إزا (زرقا) بيحبّها، وإزا (خضرا) بيقولها ممنوع الدخول.
- إنت ندمان على زواجك؟
- ولا مرّة، بس هي ندمانة.
- إنت ما فهمتها مشاكل القدس قبل الزواج؟
- فهّمتها، بس قبل الزواج بيكون الزواج أهمّ إشي، وكلشي تاني ثانوي، وبعد الزواج، بيصير كلشي ثاني مهم، والزواج إشي ثانوي!

- مؤلمٌ أن تصلا إلى هذه المرحلة.
- أنا لا ألومها، الوضع صعب، إحنا بنتنفّس مصاري، وعشان فش مصاري هاي الفترة انخنقت، والمخنوق يرفس من حوله.
- يا الله!
- تخديش ببالك يا بنت الحلال، قومي نامي، احنا عايشين، بالطول، بالعرض، بالارتفاع، عايشين في القدس لحدّ ما الله يفرجها، أنا آسف إني دوشتك معنا في أوّل لقاء، لكني بعد اختناق الغاز اليوم في الأقصى بحاجة إلى النوم، اعتبري البيت بيتك.

تختلي ياسمين بنفسها، في الغرفة التي خصّصها لها فضل، وجفاها النوم، فوجه أمّ أنس الحزين، حضر بقوّة على قلبها تلك الليلة، بكلّ قسوة الاعتقال الأوّل في ضمير العائلة، وما يكتنفه من ارتباك وقلّة دراية، وهواجس مرعبة، فتحت باب الغرفة التي آوت إليها لتتمشى في البيت قليلا، فوجدت فضلاً يتقلب على الأريكة، فأغلقت الباب وقد انغلق صدرها، وقد لاحت لها آلاف الليالي التي قضتها ويونس في سرير الزوجية، وهي متسلّحة بالصدود، ومتلفّعة بالغطاء الثقيل صيفاً وشتاءً، وواضعةً ساقها الاصطناعية بينهما، لتمنع احتكاك جسديهما، ومذعورةً من مرور أصابعه على ندوبها.

****

عندما ننتظر الصباح يتأخّر بالحضور، ولكنه عاجلا أو آجلا يأتي! يأتي ليمنحنا بداية جديدة، يأتي لينقذنا من الأوجاع التي لا تصحو إلا ليلا. قضت ياسمين ليتلها وهي تشعر بنفسها كضيف ثقيل الظلّ.

بعد الفطور، وهما يحتسيان القهوة، وزوجته مشغولة في المطبخ، بادرته: أريد أن أزور أمّ أنس لأواسيها باعتقال حمزة، فهل تدلّني على البيت؟

- بالتأكيد، شرط أن تعودي، أبو إدريس قال ليلتان.

فتضحك: وأنت أيضا تؤدّي دورك في مهمة السلام؟

- أيّ سلام يا صاحبة الجلالة، أبوك قال: عادت وأريدكم أن تكرّموها، واحنا لسّا ما أكرمناك.

- أنت أكرم نفسك، ولا تنم على الأريكة بعد اليوم، مهما كان الأمر.

- أنا أكرم نفسي حين أنام على الأريكة.

تضحك: البعد جفا يا أخي، اغضب على سرير الزوجية، واترك دفء جسديكما يطوي المسائل، لا تفتح أبواب الشيطان.

- أمريكا بتعلّم هاي الشغلات؟

- اه، بتعلّم قلة الأدب، ومثل ما بتقولوا للنسوان: فش كرامة بين المرة وجوزها، كمان فش كرامة بين الرجال ومرته.

يضحك: لا بس بين المرة وجوزها فش كرامة، بين الرجال ومرته في، ولا بعدين بتصير الحياة شوربة.

- خليك معقّد يا خوي، الرجل العربيّ بدون عقد، ما بيضل منه إشي.

- هاي مبادئ مش عقد.

- يبقى الرجل الشرقيّ شرقياً، ولو وضعته بمئة قالب!

- ياسمين، أنا مطوّل بالي عليك عشان أمريكا شطبت مخّك، بس اتزوديهاش.

- والله إنت مصدق حالك، أنا اللي مطوّلة بالي عليك، قوم دلّني ع البيت.

يضحكان: الله يعطينا خير هالضحك.

****

وجه أمّ أنس كوجه الأرق هذا الصباح، حين التقت ياسمين بالباب، قالت: أهلا بك.

شيءٌ ما يحدث لأصواتنا عندما نبتلع القلق، شيءٌ لا يشبه الحزن، ولا يشبه الفرح، هي التي قضت العمر تتلقى كل أشكال المواساة على مصائب حياتها المتلاحقة، تطلق العنان للأمريكية فيها لتقوم بالواجب، تحتضن أم أنس بقوة: أنا آسفة لما حدث. تشدّ على كفيها. الأمريكيون لا يتقنون الكلام، يتحدثون بأجسادهم، المواساة عندهم عناق، واحتضان أكفّ، وابتسامات مشجّعة.

ترافقها إلى شعفاط، لترى ما سيفعله أخواله لمساعدتها، تستقلان الباص، تنزلان قبل الحاجز بقليل، ياسمين تعيش تفاصيل المرور راجلةً على الحواجز لأوّل مرّة، فتشعر بالاختناق وهي تنتظر قدوم حافلة لتحملها عشرة أمتار، ممنوع على الفلسطينيين اجتيازها سيراً على الأقدام، يخنقها هذا الجدار المقيت الذي يشقّ صدر المدينة.

تلحق بأمّ أنس التي تنزل للتفتيش الفرديّ، عبر الأبواب الكهربائية الدوّارة، وهي تسأل: لماذا؟

- البقاء في الحافلات فقط لمن معهم أطفال، أو كبار السنّ.

- سأبقى إذن، معي وثيقة تثبت عجزي، سترن ساقي على البوابة الالكترونية.

تراقب صعود الجنود لتفتيش من في الباص، وفحص هوياتهم، وتبصق بصمت على وجه الوطن الذليل، كيف وصلنا إلى هذا المنحدر؟

أمام بيت أبي يوسف في شعفاط، افتقدت كفّ يونس التي استندت إليها قبل أسبوعين، تدخل البيت وحيدة، تراقب أم أنس، تجلس على الأريكية، وتأخذ بالبكاء عن كل ساعات التماسك السابقة.

هنا لا أحد يحتضن أحد، يحافظون على المسافات الجسدية، يكتفون بالجلوس إلى جانبها، صالح يفقد صبره من نحيبها: يكفي يا أم أنس، إنه مثل بقية الشباب، وحّدي الله.

محمود يُطلّ من الباب: أم أنس يا أخيتي، انظري إلي.

تنظر إليه من خلف دموعها.

- ابنك قصته بسيطة، سيحققون معه، ويخلون سبيله غدا أو بعد غد، واليوم السبت كما تعلمين، لا محاكم، ولا تحقيق، فتوكّلي على الله، وقوّي قلبك، بعدين أنا بدّي أقولك عن حمزة؟ ما إنت عارفة أنّه ابنك تيس، وراسه يابس، اتخافيش عليه، ما حدا بيطلع معه راس. ويتحدّث حسن لأوّل مرّة: تآخذيناش يختي ياسمين، التهينا بأمّ أنس، كيف لاقيت أهلك؟

- الحمد لله مناح.

صالح: وين رح تكوني اليوم؟

- سأعود مع أمّ أنس إلى كفرعقب، عند أخي الفضل.

- على خير إن شا الله، أوّل يوم رمضان فطورك عندنا، وبعدها لبي دعوة من شئت.

- ربما اليوم الثاني، فإنّي أريد الإفطار مع أبي أوّل يوم، كما تعلم لم أفطر في بيته منذ سنوات طويلة.
- على بركة الله.

كلمّا مضى الوقت، وتخفّفت أمّ أنس من أحزانها، وتسلّلت إلى روحها بعض السكينة، كلمّا أدركت ياسمين، أنها ما كانت لتقضي السنوات مصلوبةً على جذع الحزن والأسى، لو كان لها عائلة.

****

في طريقها إلى بيت أخيها فضل، تفكّر في طريقته الساخرة من كلّ الأمور، ترى هل تخفّف السخرية من الأوجاع فعلاً، أم إنها فقط تجعلها تبدو كذلك؟ طرقت عليه الباب، ففتحه مبتسماً: أنا قلت ما بترجع، أهلاً بك.

- ولماذا لا أرجع؟ ألم يقل أبوك ليلتين، وأكرمها؟ فأين الكرم؟
- تعاليْ لأريك الكرم على أصوله، أتأرجلين؟
- نعم؟
- أي يلا عاد تعمليش فيها الشيخ محمد عبد الوهاب، بتأرجلي؟
- هو مش عبد الوهاب مطرب وملحّن؟ هو صار شيخ؟
- خذلك هاي! هلأ مسكتي بعبد الوهاب ونسيتي السؤال الأساسي؟
- يعني أنا ما بأرجل، بس ما عندي مانع.
- طيب، يلا تعالي، ويخرج من البيت وهو يشير لها بالخروج.
- إلى أين؟
- إلى المقهى لندخن الأرجيلة.

- وزوجتك؟

- زوجتي عند أهلها، هيا تعالي، الحكي لا ينتهي، ولسنا ذاهبان إلى ساعات صمت، رح نحكي لنشبع حكي.
جلست إلى جانبه في السيارة، وهي لا تنفكّ تطالعه بعين الريبة، وتقول في نفسها: هل هذا ما يفعله الرجال حين تغادرهم زوجاتهم؟ وتسأله: زوجتك عند أهلها غاضبة؟

- لا، إنها تزور أهلها أسبوع أو اثنين كلّ عام بداية العطلة الصيفيّة، لأن الزيارة لا تتسنى لها أيام الدوام. زيارتها عادية، وبيني وبينك جاءت في وقتها، ليس لدينا ما نقوله لبعضنا، البعد أحيانا يصلح الأمور بشكل تلقائيّ.

- أصلح الله بالكم.

توقفت السيارة، ترجلا، وتأبّط ذراعها، ودخل معها إلى مقهى سريّة رام الله، وهو يقول: أتعرفين؟ ربما أكون أكثر إخوتي سعادة بعودتك، منذ أن بلغت الثانية عشرة وأنا ألحّ على أمّي لتنجب لنا أختاً، فكانت إذا ملّت من طلبي تقول: لك أخت، قل لأبيك أن يصالحها، ويجعلها تعود للبلاد في زيارة.

- أمرك غريب! ماذا كنت تريد من أختك؟ في العادة الأولاد يكرهون أخواتهم.
يطالعها بعدم رضا: من أين تأتين بهذه العبارات؟ الأخت في البيت للمراهقين حاجة ملحّة.

- يقطع شرّك، أهذا ما قصدته؟
فيضحك: ولّا شو؟

- الله يجيبك يا طول البال.
- اسمعي: بدك أرجيلة ليمون ولا تفاحتين؟
- كما تشاء.
- ليمون.
- خلص زيّك.

ويصمتان قليلا، وهي تتفرّس في وجوه الناس حولها، تستوقفها وجوه الصبايا وهنّ ينفثن الدخان باحتراف، وتتوقّف طويلاً أمام لباسهنّ، بعضهنّ محجّبات، وكثيرات من غير المحجبات، وقد تخفّفن من الثياب، رغم الحفاظ على السروال الطويل عند معظمهنّ، يتصرّف الناس بأريحيّة بالغة، فتقول: لقد تغيّرت الدنيا كثيرا.

فيردّ وظلّ ابتسامة ساخرة عالقة على شفتيه: إنها ثلاثين سنة!

- صحيح.
- أتعرفين أمراً؟ لم أكن أتخيّلك هكذا؟

فتسأله باهتمام: كيف إذن كنت تتخيّلني؟

فيعبّ من أرجيلته، ويتطلّع في وجهها وابتسامته الساخرة لا تفارق وجهه: إن لي حكايا طويلة معك، رغم أنني ألتقيك لأوّل مرّة، اسمعي يا سيدتي: منذ وعيت على الدنيا، وأبي يذكرنا دائما أنّ لنا أختاً سافرت إلى أمريكا اسمها ياسمين، فكنت في وعيي شجرة.

تضحك.

- آه والله، كنت اتخيلك شجرة بباب البيت، زهرها أبيض، ولا تدخل بيتنا لأنها خلقت لتفوح بعطرها على المارّة، وتحجب عن نوافذ البيت عيون المتلصّصين.
- طيّب؟
- ثمّ وأنا في العاشرة، صرت في مخيلتي أميرة خالدة، كأميرات الأساطير، سندريلا مثلا، وأحيانا حين كانت أمّي تتعب من عمل المنزل، ومن متابعتنا نحن الأولاد الثلاث، كنت أتخيّلك كبياض الثلج، تلك الأميرة التي دخلت بيت الأقزام السبعة، وعلّمتهم كيف يستحمّون.
لا تملك نفسها من الضحك بصوتٍ عالٍ.

فيردّ بعتب مصطنع: الحقّ عليّ اللي بقولك أحلامي السريّة بصراحة. بطّلت أحكي.

- لا، لا، احكي.
- تعرفين؟ أبوك يحبّك بجنون، ربما لهذا ارتبطت بكلّ شيء جميل في وعينا نحن الثلاثة جميعا، ولكن كل واحد منا تخلّص من أسطورة ياسمين العائليّة بطريقته، إدريس عكف على دراسته، وظلّ يبحث بين الفتيات حوله عن واحدة تشبهك، أو لنقل تشبه أسطورتك الخالدة في عقولنا، وربما لم يجد السعادة الزوجية مع زوجته لأنها أقلُّ من أسطورتك. ومحمد رجل عمليّ، كان يقول لنا: ياسمين حلم والدنا الجميل، ابنة وأخت، نقاء كامل بهيّ، إنها مجرد فكرة، لا توجد امرأة بهذا الكمال، وإن وجدت فإنها تصلح أختا لا حبيبة ولا زوجة.
- وأنت؟

- أنا توقّعت كل شيء إلا أن تكوني أنت أنت!
- هل أنا أقلّ بكثير مما كنت تتوقع؟

فيقول بجديّة مصطنعة: يعني أولاً، ما توقعتك عجوز هيك، وثانياً، عاديّة يعني، من ناحية جمال، ومن ناحية الحضور، بصراحة؟ راحت عليك ياسمين! أنت كما قال محمد: حلم والدنا الجميل.

رغم أنها لا تميّز مزحه من جدّه، وتعتقد جازمةً أنه يستغلّ المزاح ليمرّر عباراته القاسية، لكنها لم تعتقد يوماً أنها ستهتمّ لما يقوله أحد أبناء أبيها من زواجه الثاني عن جمالها وعمرها، حاولت أن تخفي تأثّرها بقولها بنفس نبرة المزاح: الله يجبر خاطرك.

- هل أزعجك رأيي؟
- أبدا، لم أعتقد يوما أنني سندريلا، ولم أطمح إلى أكثر من حياة عاديّة.
- صدقيني، فكرة الحياة العادية هذه أكبر أكذوبة يتناقلها البشر، فقط ليجعلوا حياتهم أتعس.
- كيف؟
- في الواقع لا توجد حياة عادية، كل الناس الذين عرفتهم في حياتي، كانت حياتهم استثنائيّة بطريقة ما، لا أعتقد أن ثمّة مواصفاتٍ للحياة العاديّة، الناس إمّا أيتام، أو مطلّقون، أو زواجهم شكليّ، إما ضعاف الذكاء، أو أذكياء بلا فرص، إما فقراء، أو أغنياء بلا أولاد، إما متواضعو الجمال، أو جميلون بصحة تعبانة، إن العادي في هذه الحياة، ألا يعيش أحدٌ حياةً عادية!
- ما الذي تحاول قوله؟

- أبي أيضا لم تكن حياته عاديّة. لقد اضطر إلى ترك حبّ حياته والتي هي أمّك، وإلى عيش حياة عاطفيّة مرقعة ومضنية مع أمّي، لأنّه لم يكن عاديّاً ألا تنجب أمّك بعدك، ولم يكن عاديّاً أن تقبل أسرته أن يبقى ابنها الذكر الوحيد بين البنات بلا ولد ذكر. كان ذلك قدراً قاسياً، لم يكن عادياً! لم يكن عاديّاً أن نولد نحن الثلاثة من زواج ثانٍ، لأمّ تعوّدت أن تكتم حسرتها في قلبها كلّما أخطأ زوجها بمناداتها، وناداها باسم زوجته الأولى المتربّعة على عرش قلبه، وهو يجاهد كي تفتح له زوجته الأولى باب بيتها، فيما تبقى أبواب أمّي المشرعة تئنّ حزينةً دون اكتراث. لم يكن عاديّاً أن يحرمنا أبي من اكتمال انبهارنا بأمّنا نحن أبناؤه الذكور، لأنّها لم تكن كافية لتبهره!

تطرق ياسمين، وقد ظهر الأسى على وجهها: يا إلهي! لم أتوقّع يوماً أن الأمر في بيتكم كان بهذه القسوة.

- باختصار، لقد كنتِ في وعينا كيوسف بين إخوته، وقد فزتِ بكل حبّ أبينا دوننا، ولكننا لم نكن كإخوة يوسف، ربما لأننا ذكور وأنت فتاة، صرت في وعينا الفتاة الحلم، وصورة الكمال النسائيّ.

فأطرقت وهي تقول في نفسها: إنّه على حقّ، إن العاديّ في هذه الحياة، ألا يعيش أحدٌ حياة عاديّة!

صباحاً وهي تودّعه لتذهب إلى أبيها في بيت جدّها في حارة الواد، مازحها بقوله: سلّمي على أبي إدريس يا صاحبة الجلالة، وقولي له إنّي أكرمتك، وأخذتك مشوارا.

صهيل المدينة

تنتظر الحافلة لتذهب إلى بيت جدّها في القدس، والذي صار بعد زواج أبيها الثاني بيت أبيها، والقلق يتقافز في صدرها، وتلك المشاعر الحارّة التي تهوي عميقاً، تضعف قدرتها على حبس الدموع.

باب العامود يصافح قلبها الوجل، فقد سبق لهما اللقاء قبل أسبوع، البسطات التي تصحو متثاقلةً على الجانبين على درجات باب العامود، تقرئها السلام، وتعبث رائحة الصباح المقدسيّ في أنف عملاق الذكريات المتحفّز في داخلها، كم تخاف انهيار قلبها أمام الأماكن الغالية، تكتشف أخيرا أنها لم تحبّ أحدا كما أحبّت هذه المدينة، فهي الأحبّة كلهم والذكريات، وهي التماس الدفء في زمن الرطوبة والصقيع، وهي الذراعان اللتان تفرعت عنهما أصابع القوة، وهي الأمان، وهي الشاهد على إخفاقها وبكائها، وتراقص الأفراح في أناملها الصغيرة، وهي الطريق إلى البكاء، وهي الطريق إلى العبادة، وهي الطريق إلى الشقاء، وهي الطريق إلى السعادة.

لا يمكن لأحد تنشّق عبق الصباح في القدس العتيقة أن ينجو من سحرها، القدس تطارد أهلها حتى آخر الدنيا، وتسقط أمام رائحة التاريخ فيها كلّ روائح المدن الأخرى، أمام بهائها تسقط حضارة أمريكا، وتنهار في عينيها ناطحات السحاب، لا شيء يناطح السحاب كشموخ المقدسيين وصمودهم، كرباط مطعم (أبو شكري) للحمص والفلافل، أمام كل عمليات التهويد، يحفظ الطفولة في طبق فارغ، يتقافز به طفل على أطراف أصابعه، ويعود به مملوءا، يخطو بحذر وبهجة.

وتعود فيها الطفولة مع حبات الفلافل المصطفّة حول المقلى الكبير أمام المطعم، وتعود معها أمّها، وهي تقضم نصف حبّة، وتعطيها البقية!

آه يا قدس، رفقا بقلبي، لم أعهدك قاسية حدّ الألم، تحاصرها صورة الشرفة الممتدة بين جانبي حارة الواد، فيقع منها قلبها، تقف أمام بيت جدّها، وتضيع منها الكلمات، فترجع طفلةً تنطق بما لا يفهم، تتلعثم وتتكسّر الحروف على شفتيها، فرح الطفولة بزيارة الجدات، بهجة الأطفال بحبّات (القضامة الملونة)، وحميميّة المكان الجارحة، تجلجل في داخلها الطفولة، وتلمح صورتها على زجاج نافذة داخل (الحوش) الكبير، فترى تجاعيد الزمان، وتستفيق على الواقع، تطرق الباب، يفتح طفل صغير، تبتسم له، فيهرع إلى الداخل ينادي أمّه، تخبرها أنّها ياسمين، فتشرع لها الباب: تفضّلي، وتنادي: إدريس، إنها ياسمين.

بوجه متعب: أهلاً بك، يصافحها بقوّة وحذر.

اللقاء بارد، المكان تغيّر كثيراً من الداخل، فتهدأ فيها الذكريات، الصمت ثقيل، فتبادره: هل جئت مبكراً؟

- بل تأخرت كثيراً، تأخرت ثلاثين سنة.

تطرق كطفلة مذنبة، وترفع إليه نصف نظرة، لتجده ما يزال محدّقاً فيها، فتحرث عقلها بحثاً عن ردٍّ مناسب: قدّر الله وما شاء فعل.

- نرتكب الآثام، ثم نقول قدّر الله.

- أيّ أثام؟

- وهل بعد عقوق الوالدين إثم؟

تطرق، تتشبّث بالصمت، تتناول فنجان القهوة من زوجته التي انسحبت على عجل، لم تتوقّع ياسمين أن لقاء إدريس سيكون صعباً هكذا، هو الرجل الوقور، يغزو رأسه الشيب، وجهه مزيجٌ جميلٌ من أمّه وأبيه، له

نظرة أبيه الحنون الحازمة، حزمٌ ألغى فرق السنّ بينهما، وطوى السنوات الثمانية التي تفصلهما، فيبدو وكأنّه وليّ أمرها.

يبادرها بعد صمتٍ طويل: خرج أبي ليراجع الطبيب، سيعود بعد قليل، البيت بيتك.

مضى الوقت في صمت ثقيل، وكلمات فضل بالأمس عن أمّه، وحياتهم مع أبيهم المعلّق القلب بزوجته الأولى، وابنته البكر، جعلتها تتفهّم هذا العتب الكبير الذي يحمله إدريس عليها. سمعته يتّصل بأبيها ويخبره أنّها في البيت، وعاد إليها دون أن يتخفّف من عتبه: يقول أبي أنه يريد لقاءك في مقبرة باب الرحمة عند قبر أمّك، لأنّه من الصعب عليه أن يقطع الطريق مرتين، سينتظرك هناك.

تستغرب الطلب، ولكنّها كانت تريد الخلاص من الصمت المطبق على المكان، فهمّت بالوقوف وهي تقول: حسناً.

قال: عليّ أن أوصلك.

طريقته الجازمة في نطق الكلمات، لم تترك لها فرصة للرفض، فقد قام يدفعها للتقدم نحو الباب، وسارا معاً، مطرقة تمشي، تتجنّب الجدران، تفكّر في لقاء أمّها، لم يذهب الموت بهيبتها، تستحضرها، تعدّ كلمات ستقولها، هل من اللائق أن تبكي على القبر؟ وهل يمكن ألا تبكي؟

في الطريق إلى القبر، عبر قبور مقبرة (باب الرحمة)، انهار كل شيء داخلها، إدريس الذي كان عاتباً عليها حدّ القسوة، حين رأى وقفتها المرتجفة أمام القبر، أشفق عليها، وراح يطلب أباه يستعجله، كان أبوه على بعد خطوات منهما، توقّف أمام القبر، فقال له إدريس: هذه ياسمين! وأدار ظهره ومشى مبتعداً، فيما صافحها أبوها، وهو يقول: ألن تسلّمي على أمّك؟ ألن تعتذري لها عن غياب ثلاثين سنة؟

جثت ياسمين، وضعت يدها على قبر أمّها وكأنّما تصافحها، لم تقوَ على احتضانها، شعرت بغضبها، تناجيها: أمّي، كانت حياتي قاسية، لهذا لم أرجع، لو أن الليل ينزل الآن، لكنت خلعت ملابسي لأريك ما حلّ بي، لو أنك تعرفين كيف تعيش المرأة مع جسد مشوّه، ورِجْل مقطوعة؟ لو أستطيع لفتحت لك قلبي لتري كيف حفره الحزن على وفاة طفلي، وحدك يا أماه تعرفين كم تعاني الأمّ حين تفقد طفلها!

تجفل ياسمين، تحسّ بعيني أمها تحدقان فيها، تعرف أنها تكذب، الموتى يعرفون أكثر مما يقال، ربّما لأنّهم في عالم الروح، فتعترف: لم تكن ندوبي سبب عدم رجوعي، أنا لم أرجع لأنّي جبانة، خشيت العودة، وخفت اللقاء، وتناسيت كلّ شيء، حتى توهّمت بأنّي نسيت، كنت أنانيةً وقاسيةً، أنا ابنة عاقّة، ولك أن تقتصّي منّي حتّى ترضي، وتغمض عينيها بقوّة، وتشرع أبواب الألم على قلبها، الألم يطهّرنا، تعتذر لها عن الغياب وتبكي، كلّ شيء فيها يبكي إلا عينيها! تنهض منهكةً متوجعةً، لتجثو ثانية عند قبر أمّها، وتضع خدّها عليه، وتتلمس دفء أمّها، وتنهض لتبحث عن أبيها، فتجده جالساً على الأرض مولّياً لها ظهره، ينفث الدخان.

تجلس جانبه، أظنّ أنّ صحتك لا تحتمل الدخان.

– صحّتي لا تحتمل غيابك.

فتسحب سيجارتين من علبته، تلصقهما إلى جانب بعضهما، تشعلهما معا، تعبّ منهما معاً، تخرج الدخان من أنفها وفمها، وكأنّما تطفئ النّار في أعماقها بهذا السمّ.

سألها وهي تسحق الأعقاب: هل غفرت لك؟

– لا أدري.

- بلى غفرت! أنا أعرف.

يصمت برهة، ثم يقول لها: اسمعيني جيدا، ستقضين هذه الليلة عندنا في البيت، هذا مفتاح البيت، كنت قد تركت لك فيها وصايا وأشياء قبل بضعة شهور، خشيت أن يدركني الموت قبل زفاف ابنتك، كنت أعرف أنّك ستعودين، ولكنّي لم أكن واثقاً من عمري.

- سأذهب غدا، أحتاج فسحةً من الوقت بين هزتين.

- أعرف أنّك ما لم تدخلي البيت لن تشفي، ولكن أريدك أن تكوني حذرةً فقد استولى اليهود على كلّ البيوت في (الحوش) [1] ولم يبق إلا بيتنا هناك.

- يا إلهي! كيف حدث هذا؟ كيف استولوا على البيوت؟

- (الحوش) كلّه كان مُلْكاً لرجل غادر البلاد قبل عام ثمانية وأربعين، وقد استأجر الناس البيوت منذ عشرات السنين، وبعد صدور قانون (أملاك الغائبين)، استولت عليه (الدولة)، ومنحته لرعاياها.

- وماذا عن بيتنا؟

- إنه الوحيد الذي اشتراه أبي، ويملك فيه حجة ملكية. هل أنت خائفة من مواجهة اليهود؟ هل تريدني أن أرافقك إلى هناك؟

- لا، إنه بيتي، وسأعود إليه، ولن يمنعني عنه أحد.

---

[1] اللفظ المحكي للتعبير عن البيت العربي القديم الذي يضم عدة بيوت، تتشارك في فسحة غير مسقوفة في الوسط، كان للعائلات الكبيرة.

يبتسم لها: وأنا أقول هذا أيضا، عليك أن تدخلي البيت وحدك، وأن تواجهي ماضيك وحدك، كي تتخلّصي من ثقل السنين، وتجدين السلام الداخلي، على كل حال إذا واجهت مشكلة في دخول البيت اتّصلي بنا، وستجدين نصف القدس تساندك، الناس قلوبها محروقة على بيوتها.

- آمل أن تمضي الأمور بسلام.

ترى هل نامت تلك الليلة؟

قلبها الذي لا يهدأ، ظل متضرعا ليثبتها الله غدا في حربها لدخول البيت، ولم يزرها النوم إلا شزرات قليلة، سرقها من بين أفكارها وهمومها، ليبدّد بغفوة قصيرة الشيء القليل من القلق. وقد قرّرت أخيراً أن تدخل البيت بحجاب اليهوديات دون اشتباك، ولا مناوشة لن يحتملها قلبها المثقل.

الفصل الثالث

قيامة الروح

في الطريق إلى (عقبة السرايا)، تحاشت الجدران كي لا يهجم الماضي عليها، خبّأت الفلسطينيّة في أعماقها ولفّتها بغطاء ثقيل، ولبست الأمريكية لتمرّ من بين (الإسرائيليين) بسلام.

بيد واثقة أدارت المفتاح في باب (الحوش)، وبخطوة واثقة دخلت، تحاشت التحديق في المكان، كي لا يُعرّيها الحنين، رأت وجوهاً تُطلُّ من نوافذ الغرف العالية، أحد الأطفال يجري مسرعاً بلباسه اليهوديّ الدينيّ التقليديّ في ساحة (الحوش)، رجلٌ له عينان كعيني (السكناجيّ) الذي وقع أمامها قبل ثلاثين سنة، تمشي بينهم كجارة متعجرفة بعثت بها (الدولة) كما بعثت بهم، وقد أحكمت ارتداء حجاب اليهوديات على رأسها، ومتماهية بلباسهن الديني الطويل، الأسود، الساتر.

تصعد الدرجات إلى بيتها، تدير المفتاح وتدخل بتأودة، وتغلق الباب خلفها بهدوء، وتستند إلى الباب من الداخل، تغمض عينيها لتقوم الفلسطينية في أعماقها عن صليبها، وتفتحهما على مهل، فيختطفها المكان، عجلة الزمن تدور، تختطفها من أيامها، تلقي بها طفلة على أرض البيت تحبو، يفرّ العمر من بين يديها، تخلع حذاءها، وتتعافى ندوبها، تنبت ساقها من جديد، تتخفّف من ثيابها، تمشي وكأنما تخطو على نور من زمن البراءة، تفتح الخزانة، فتخترقها الرائحة، عطر أمي! للعطر كفّان من نور، تتسلّلان عبر قفصها الصدريّ، وتقبضان على قلبها، تعتصرانه، تفرغانه من آخر قطرة ذكرى فيه، فترجع طفلةً تخطو وتتعثّر، تمشي العجوز بخطوات طفلة، تتقافز إلى زاوية ألعابها، تجلس، تحتضن دميتها الصغيرة، تُقبّل خدّها البلاستيكيّ، تهدهدها وكأنّها لم تصبح أمّاً، تنادي أمّها، فيسقط قلبها وجعاً، ويتكسّر،

تطفر إلى عينيها شظايا القلب، فتبكي، تستحضر أمّها، لتسألها ذات الأسئلة الطفوليّة الساذجة، وتشكو لها شوقها لأبيها، وتستسلم لتوبيخ أمّها ولومها، هذه المرّة لا تسكت ياسمين، تقول لأمّها إنها لا تريد أن تصدّق أن أباها تركها، وترجوها أن تسمح لها بزيارته، أو أن تسمح له بالقدوم، تعود إلى الماضي لترمّمه على خشبة المسرح، ولتكتبه كما يجب أن يكون، تستغرق في مناقشة أمّها، تستحضر أباها في زيارات كثيرة غامرة، تزوره وتلعب مع إدريس ومحمد وفضل، وتعيش تفاصيل الطفولة الراحلة، وتكبر قليلاً، تفتح الخزانة من جديد، تسحب حقيبتها المدرسية، الملوّثة بآثار دم ربيع الذي ارتمت عليه ذلك اليوم، فتمسحها بيديها، وتعود ذلك اليوم بسلام إلى البيت، دون أن تصرخ، ودون أن يسقط ربيع، ودون أن تدخل المسكوبية، ولا تلتقط رسائل سامر، فيفقد منها الأمل ولا يجنّ، ولا يجلدها أبوها، ولا تتزوّج يونس، ولا تموت أمّها، ولا تسافر، ولكن تنجب عمراً وعزيزة! ولا تصاب بالحادث، وتحملهما إلى أمّها وأبيها، تأخذهما من أيديهما وتجول بهما أسواق القدس، ينطقان باللهجة المقدسيّة، ويعرفان مكائد المكان، ونهفات أهله، ياسمين تكبر، ياسمين تشيب، هي الآن في الثامنة والأربعين، تعود لبيتها، وفي لحظة جنون، تنجب أمّها الأبناء الثلاثة، ولا يغادرها أبوها!

كلّ شيء بدا جيداً، ترتخي قبضة العطر عن قلبها، وتمرّ في المكان أصواتٌ عبريّةٌ، فيستيقظ الواقع بكل لؤمه، وقسوته، وعذابه، تعود الغربة لتنهش قلبها المتشظّي، فتدوس بأقدام حافية على شظايا القلب، وتؤلمها الجراح، لم يكن الماضي هكذا! كان سيلاً من الحرمان الممض، والوجع الخرافيّ الأثر، والألم حدّ الخدر.

أيها الماضي تمهّل، ترفّق بندوبي، ارحم شظايا القلب، وترفّق بقطعة الوجع التي تسكنني، أمسح على رأسي فإنني يتيمة! وجعي يتيم، وجعي شقيّ، وجعي مكابر، وجعي آهٍ يا وجعي، هذا الوعاء الذي وقفت فيه طفلة عارية بين يدي أمي، تصبّ الماء على رأسي، وعلى جسدي وتغنّي، ما أعذب صوت أمي! ما أدفأ صوت أمّي! ما أعذب انتعاش الماء! أمّي الأمان، خائفة أنا يا أمّي، ملوثة بآثام كبيرة، إثم الغياب، وإثم الذاكرة التي نامت طويلا لتصحو على كل هذا الوجع.

تقف ياسمين بندوبها لتستحمّ، تستعيد صوت أمّها بأغنية قديمة قدم الفرح! تنتعش، وتلفّ نفسها، وتستسلم لذراعي أمّها تحملها إلى السرير، ترتدي ثيابها القديمة الزاهية، وتغفو.

تصحو على صورة السقف، لا تتفاجأ، تكتشفت أنها لم تعتد طوال العمر سقفاً غيره، وكلّ ما في الأمر أنها توقفت عن السؤال إذا ما استيقظت: أين أنا؟ تعرف السقف ويعرفها، يعرف ياسمين الصغيرة، ذات القلب الصغير، والأحلام الصغيرة، ياسمين الوهم الجميل، والشوق الكبير لأبٍ غاب وما غاب الشوق إليه أبدا، تصحو الأمريكية، تسألها عن معنى وجودها في هذا البيت، وترتعش الفلسطينية قلقاً كلّما عاد إليها الوعي، وترامت لها الأصوات العبريّة في الخارج.

تخرج ياسمين من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، ويتركّز نظرها على آلة التسجيل في زاوية الغرفة اليسرى، إلى جانب النافذة، تضغط زرّ التشغيل وتستلقي بتلقائيّة، فيهزّها صوت أبيها المنبعث من آلة التسجيل، يضرب جذور روحها: ياسمين يا ابنتي، إذا كنت تستمعين إليَّ الآن، فإنّني قد متّ، ولم أرك بعد، لن أعاتبك على الغياب يا صغيرتي، ولن أسألك لماذا، أريدك أن تسمعيني، أنت أغلى أبنائي يا ياسمين، لا أحد يعرف معنى الأبوة

كالآباء، وأنت الآن أمّ، فهل تدركين حجم حبّ الأب لابنته التي ظلّت وحيدته لسبع سنوات؟ لقد تغلغلت في أعماقي حتى صرت منك، شوق الأب لا يطفئه إلا احتضان تختلط فيه أجسادنا، لديّ رغبة بابتلاعك، لا شيء يشفي شوقي إليك غير احتوائك فيَّ، كم تمنيّت أن أخبّئك داخلي، وأحميك من الحرمان، من الشوق، من جلدات حزامي، من صفعات الجنود، من الخوف، تمنيّت لو صرت شبحاً يتخلّل قلبك، فأمحو الوجع، وأحذف من ذاكرتك الصور التي تؤذيك.

أبي يبكي!

توقّف العمر، توقّف الخوف، توقّفت الشجاعة، لا شيء إلا الألم الكبير، أبي يبكي! أتبكي بسببي يا أبي؟

بصوته المتحشرج يقول: أتعرفين أنني أصارع الجنود في منامي كل ليلة دفاعاً عنك، وأضرب ذراعي التي جلدتك، وأقبّل في الصباح ندوب جسدك، ولا أنام قبل أن أطمئنّ عليك كل ليلة من زوجك.

لقد غفرت لك الغياب يا ياسمين، فاغفري لي يا ابنتي، وزوري قبري كثيراً، سأعرف أنك أتيت، لن يحرمني الله رؤيتك، وقد قايضت رؤيتك بالجنّة طوال حياتي في دعائي.

خبّأت لك رسالة في حقيبة الأوراق المهمة، خذيها، وادع لي بالخير.

تهرع إلى الخزانة في غرفة النوم، لتستخرج الرسالة: زوري قبر أمّك من أجلي وأخبريها أنني متّ وأنا أقضم أوراق الورد لذكراها، وأخبريها أن لا طعم لأوراق الورد في حضرتها، هل أكلت الورد يوماً يا ياسمين؟ ليتك تفعلين من أجلي ذات يوم، فلربما كان لا طعم له، فأغفو في قبري مرتاحاً مطمئنّاً، هل تعرفين سرّ الورد؟ إنه اختبار الحبّ الذي اخترعته أمّك، يوم التقيتها كنت شابّاً ينقل الخضار إلى مطبخ المؤسّسة التي تبنّتها، هي اليتيمة المشرّدة،

وكانت هناك تقوم ببعض أعمال التنظيف في المطبخ، فأسرتني بطلتها، وتركت فيها أثراً بدوري، فصرت أتشبّث بحمل الخضار إلى المؤسّسة، وصارت تتمسّك بالتنظيف في المطبخ، بعد أيام قليلة من لقائنا، حملت لها وردةً جوريّةً حمراء، وهمست لها أحبّك، وفي اللقاء التالي قالت لي: كادت وردتك أن تتسبب لي بعقوبة قاسية، لولا أنني خبّأتها في أأْمن مكان، بعيدا عن عيون المشرفة، سألتها: أين؟ فضحكت بخجل وقالت: لقد أكلتها! وردتك ليست لذيذة، إنها بلا طعم!

حاولت يومها أكل وردةٍ جورية، فوجدت طعمها مرّاً، فراجعتها بشأن طعم الورد، فقالت: أكلتها وأنا أفكّر فيك، فلم أذق لها طعماً.

منذ غادرتكم وأنا آكل أوراق الورد، وألوك عروقه، ولا أجد له طعماً، ومنذ أودعتها قبرها، وأنا كلّما غلبني الشوق إليها، أكلت وردة وفاءً لحبّها، الورد مرٌّيا ابنتي، ولا يستسيغه إلا محبّ، غارقٌ في حبّه، إذا زرتيها أخبريها، أنّ البعد لم يغيّر حبّي لها، وأن لا طعم لأوراق الورد في فمي.

هل أعجبك البيت يا ياسمين؟

لقد عكفت عليه منذ وفاة أمّك، أرتّبه وأعطّره بعطرها، آتي إليه كلّما هدّني الشوق، أطبخ وأتناول الطعام مع أمّك، وأقبّل طيفها، وآكل وردتي من أجلها، وأغادر، هذه المرّة مكثت في البيت لبعض الوقت، رتّبته وعطرته، وأكلت الورد، ومضغت عروقه، وسجّلت لك الشريط، وكتبت لك الرسالة، وأنا أعرف أنّك ستعودين لحضور زفاف ابنتك، وستتألمين، ولكن أرجوك أن لا تتألّمي كثيراً، فألمك ينفذ إليّ.

حافظي على البيت يا ابنتي، فإنه رفات روحينا أنا وأمّك، بقايا روحينا تهيم في المكان، وإلا فكيف أرى أمّك كلّما دخلت البيت؟

أوصيت بأن يكون قبري إلى جانب قبر أمّك، فزورينا يا ابنتي، واجلسي بين قبرينا واحتضنينا معاً، أشعر بالموت يدنو، واعلمي أنّني أرحل وأنا راضٍ عنك، فأحبّيني دون قلق.

أبوك الذي لم ينطفئ شوق قلبه لك

مادت الأرض بياسمين، تفتّقت عن أرض أخرى، أرضٍ من ألم شديد، وشوكٍ وجراحٍ، وشظايا، أرض ٍتحرق قدميها، أرضٍ كضرب الكهرباء على الجسد المبلول، صراخها أخرس! صراخ يفوق درجات الصوت التي نسمعها، يفوق العذاب، ويفوق الطاقة، حتّى الدموع تجمّدت، بكاءٌ رهيبٌ ينهمر داخلها، ووجعٌ كبير.

بكت، وبكت، وبكت، كلّ هذا العذاب كان يلفّ قلب أبي، الحمد لله أنه ما زال على قيد الحياة، أرهقتها أفكارها، فنامت لتصحو دون ارتعاش الغربة، ودون قيد الحلم، استيقظت كياسمين المشوّهة الجسد، ذات الماضي الكئيب، تزيح الستارة بحذر لتعرف أهو الصباح أم المساء، يداعب صوت المؤذّن في المسجد الأقصى أسارير قلبها، وترهف للنداء بعد الأذان: ثبت أن غدا أولُ أيام شهر رمضان المبارك.

ويهجم عليها الجوع، تكاد تموت جوعاً، ترى كم مضى من الوقت على وجودي هنا؟ تهرع إلى هاتفها المحمول، البطاريّة فارغة! تنبش حقيبتها بحثاً عن الشاحن، تنتظر دقائق قليلة، تفتح على التقويم، إنها ليلة الثلاثاء! فتتساءل بذعر: منذ صباح الأمس؟!

وتتزاحم في هاتفها الرسائل، رسالة من إدريس يسألها أن تطمئن أباها على حالها، ورسالة من أم أنس: لقد أفرجوا عن حمزة اليوم. تبحث في تاريخ الرسالة: إنّها من صباح الاثنين.

يجب أن آكل شيئاً، تقول في نفسها، فتلبس زيّها اليهوديّ، وتخبّئ الإسلاميّ في حقيبة يدها، وتطل من خلف الستارة على الحوش، البيوت مطفأة، ثمة ضوء واحد ينبعث من البيت الشرقي.

" يبدو أنهم مشغولون كل في شأنه". تطمئن نفسها، وتخرج مسرعة لتقطع الأمتار القليلة التي تفصلها عن باب الحوش بأسرع ما تستطيع، دون أن تلفت لنفسها الانتباه، ما أن أغلقت باب الحوش خلفها، حتى ارتاحت من قلقها، واستسلمت للهذيان، تسير على غير هدى في المدينة، لا تلتفت إلى روعة الظلال، ولا إلى الأضواء الملوّنة، والفوانيس التي زيّنت جدران المدينة، تتجنّب الحديث حتى مع نفسها، لا تريد أن يعرف أحدٌ أنها عربيّة، كي تعود إلى البيت بسلام مرة أخرى، وتتصالح مع الجدران، لعلّها تشفى من قهر السنين.

تتجنّب المرور بحارة الواد، تواصل سيرها عبر السوق إلى باب العامود، ومنه تسير بموازاة السور إلى (باب الخليل) رغم التعب، هناك حيث يختلط العرب باليهود، فتكاد لا تعرف العربيّ إلا بكلماته، فإذا ارتدى ملابس عصريّة، وتحدّث بالعبريّة ذابت هويّته في المكان، تدخل مطعماً عربياً صغيراً تعرف تاريخه، تطلب بأمريكية متقنة قطعة (كورووسون) كبيرة، وكوباً من القهوة مع الحليب، وتجلس بحذرٍ على الكرسيّ الطويل، وتتناول طعامها. اللهجة المقدسيّة تدور حولها، في العادة لا يشتري اليهود من المحلات العربية، فهم لا يخدعون باليافطات العبريّة التي يضعها العرب على محلّاتهم في هذا الشارع، يعرفون فيما بينهم أنها محلاتٌ عربيةٌ فلا يدخلونها، انهم يتوارون ليصطادوا السياح، تسمعهم يتهامسون عنها، تقضم طعامها وهي تتذكر رسالة أبيها عن أوراق الورد، تلتهم القطعة كلها، كم هي جائعة! كيف أمضت كلّ هذا الوقت دون طعام؟ كانت روحها تعب من مائدة الذكريات على خشبة المسرح، المسرح يخفّف عذاب الروح.

تخرج من المطعم، تذرع الشوارع، ويناديها أذان العشاء، وتداعب قلبها همهمات الذاهبين إلى صلاة التراويح، وتتذكر زيّ اليهوديّات الذي ترتديه، فيغصّ قلبها، وتسير خارج أسوار المدينة، تبحث عن بقعة آمنة، هناك في الساحة الصغيرة التي تؤدي إلى مبني البلدية، تصعد الدرجات إلى المكان الفارغ تماما، وترتدي حجاب العربيات، وتسرع لتضيع بين الجموع الذاهبة إلى (باب الساهرة).

مع إطلالة رمضان يهنّئ الناس بعضَهم، وكأنّهم يرون بعضهم لأوّل مرّة! فتنهال الاتصالات على هاتفها بالتهنئة والدعوات لتناول طعام الإفطار.

شيءٌ من الرضا يحتلّ قلبها بعد بركان العذاب، في رحاب الأقصى تسري الطمأنينة في القلب، ويلوح الماضي العزيز كذكرى ألقة، كم لعبت في هذه الساحات مع بنات الحارة! وكم تاهت بين الجموع وهي تنتظر أباها بعد صلاة العصر، وكم تشبّثت بأمّها في خطب الجمعة، وصلاة التراويح.

تصلّي فيهدأ كلُّ شيء في أعماقها، وتخرج مع الخارجين، وتتذكر مشكلة البيت، وكيف ستدخله؟ تراقب الكاميرات عن كثب، باحثةً عن نقطة عمياء، تدخل الأزقّة بين الحارات، في الأزقّة زوايا معتمة، تراقب الزوايا، تراقب الإضاءة، تحدّق في البيوت، وتكتشف زاوية آمنة مظلمة، في الزقاق الممتدّ من منتصف طريق (باب الحديد) إلى (سوق القطانين)، في (حوش دودو)[1] تخلع الحجاب الإسلاميّ، وتبقي على الحجاب اليهوديّ، وتعود إلى البيت، لا تنظر في عيون الساكنين، تلبس الأمريكيّة على وجهها، وتجلسها على طرف لسانها، تلقي التحية الأمريكية الشائعة، فتتلقفها أم متدينة شابة، تجالس صغيرها في ساحة الحوش، فتسألها: أنت جديدة هنا يا أخت.

---

[1] باب الحديد، سوق القطانين، حوش دودو، ثلاثتها أسماء طرق وأزقة في القدس العتيقة.

يرد عقلها بصمت:

- ليس أخوات، ولسانها يجيب بأمريكية متقنة: صحيح، جئت من يومين.

_ أمريكية؟

_ نعم، وأنت؟

- وأنا كذلك أمريكية، اسمي راشيل، وأنت؟

- جاسمين، سعيدة بلقائك، اعذريني، لكنني متعبة.

تنسحب بجسارة، وقلبها يرتجف، وتدخل بيتها باضطراب أقلّ هذه المرة، تدخله كياسمين بكل عذابها، وإدراكها وماضيها المؤلم، تدخله مبتهجةً بانتصار الخدعة في زمن الحرب، وقد عرف التحدي طريقه إليها.

تستلقي على الأريكة في غرفة المعيشة، وتعبث في الرسائل على هاتفها المحمول، فتجد رسالة من يونس: سيكون رمضان قاسياً من دونك، كلّ عام وأنت بخير.

لا تعرف بماذا تجيب، فتكتفي برد التهنئة: وأنت بألف خير.

وتغفو ياسمين بطمأنينة نادرة على الأريكة، وقد تخفّفت من ثيابها كما لم تكن تفعل في أمريكا، وكأنّ ندوب المكان الخالي من أهله، جعلت ندوب جسدها أقلّ أهمية.

ذئاب الليل

ما الذي يفعله الاعتقال الأوّل فينا؟ كيف يطفئُ في الحياة بريقها؟ ليجعل المرء حانقاً، يصيبه بحساسيّة الكرامة، وتلوح له الإهانة في كل تهنئة بالسلامة. الاحتجاز في المسكوبيّة لثلاثة أيام جعل حمزة متحفّزاً، وجعل أمّه متطفّلة، تدسّ أنفها في كل شؤونه كل لحظة لتطمئن عليه. الاعتقال الأوّل ينسي الأمّ هموم الوطن، ليصبح ابنها وطنها الوحيد!

يختلّ شيءٌ ما في السلام العائليّ بعد اعتقال أحد أفراد الأسرة، فيصبح أهل المعتقل أكثر قلقاً، وأقلّ طمأنينة. ويتحوّل الأسير المحرّر إلى جوهرة الأسرة الغالية، يحاول كل فرد الاستئثار به، وكان مالك الأخ الأصغر، أكثر أهل البيت حرصاً على الاستئثار بحمزة، يراقبه كمن يراقب فوّهة بركان نشط، ويخاف عليه من موجة الانتقام التي تضرب أعماقه المعذّبة، فلا شيء يهدئُ قلبه سوى إذلالهم كما أذلوه! روحه متوجّعة، وقلبه كسير، يبحث عن الاشتباك بيدين طليقتين، أوجعته تلك الضربات التي انهالت عليه، وهو مقيّد اليدين، آلمت كرامته، وتغلغلت فيه، ولم تفلح كل محاولات مالك لجعله يأخذ الأمور ببساطة.

فيصلي مالك في أعماقه كي ينام أخوه، ويقترب منه يراقب بانتظام أنفاسه، فهي علامة الاستغراق في النوم، التي لا يمكن أن يتظاهر بها الإنسان أبداً، فيتركه نائماً، ويغادر الغرفة، ويتوقّف أمام غرفة رانية، تتسلّل إليه وشوشة وهمس، فيفتح الباب دون استئذان، يباغتها غارقة في دعاء محموم، ينتظرها حتى تفرغ من صلاتها، ويبادرها: ما كل هذا الدعاء؟ أي ذنب دفعك إلى هذه التوبة.

– ليس ذنب بل ورطة، ولا أعرف ماذا أفعل.

فيغلق الباب عليهما بهدوء، وبهدوء يسحبها من ذراعها، ويجلسها على طرف سريرها، وهو يقول: يمكنك أن تثقي بي، انسي أنني أخوك، اعتبريني صديقك، واصدقيني القول، لا تخافي مني أبدا، هيّا أخبريني عن ورطتك.

تعبّ نفسا كبيرا، كمن يجد صعوبة في التنفس، ثم تسم الله، وتقول: قبل أسبوعين جاءني طلب صداقة على الفيسبوك من حساب اسمه الوردة الجوريّة، وكان هناك صديق مشترك بينا هو صاحبتي إسمت، فقبلت الطلب.

- اه، إسمت هذه التي قلت لك مليون مرة أن تبتعدي عنها؟

تطرق: نعم، هي.

- خلص مبيّنة، وحدة ساقطة، وبدها تسقطك معها، مين طلع الوردة الجورية؟

- جندي درزي، يؤدي الخدمة على حاجز قلنديا.

تمالك نفسه بصعوبة، وهي تتفرس فيه لترى وقع الكلمات عليه، فقال بصوت محايد: طيب؟

- هو بعتلي رابط وأنا فتحته، وبعرفش بعدها كيف صارت كل صوري ع التلفون عنده، في صور من عرس أنس، كان فستاني شيّال من فوق، وقصير كثير من تحت، وصور من حفلة البنات اللي عملتها السنة الماضية لما نجحت في التوجيهي، كمان كان فستاني قصير ومفتوح من الجناب عند البطن، وكنت أتهبّل وأتصوّر بحركات، وهيك، وهو عامل فوتوشوب على وحدة من الصور، وحاطط صورته معي، وبهدّدني بصوري إنه إزا ما كنت بكرة الساعة وحدة بعد معبر قلنديا عند دخلة عطروت رح ينشرها ع حسابه ويعمللكم انت وحمزة ولكل الأصدقاء عندكم إشارة عشان تطلع عندهم.

- طيب، وغيره؟ شو في كمان؟ احكي كلشي عشان أعرف أساعدك.
- هادا كلشي.
- متأكّدة؟
- اه متأكّدة.
- طيب، الموضوع صار عندي، تلفونك رح يظلّ معي، حسابك رح ألغيه، والمهم أنك متفتحيش نت من أي مكان في الدنيا، وإسمت الزفت هاي تحكيش معها، لو اتصلت ع أمّك، سكّري الخط، تحكيلهاش إشي لو أجت عنا على الدار اطرديها، فاهمة؟
- فاهمة، بس شو رح تعمل؟
- ما دخلك، إنت اعملي اللي بقولّك عليه وبس، وتخافيش، إلا إزا في اشي ثاني غير الي حكتيه.
- والله هادا اللي صار، وفي بس الرسائل إلى بيني وبينه، أوّلها كنت أسبّ عليه، وبعد ما هدّدني، صرت أغزل معه ناعم، عشان أكسب الوقت.
- تقلقيش من الرسائل، هادا حكي فاضي.
- الله يخليلي اياك يا خوي.
- بس تاني مرّة لما بقولك انسيك من صاحبتك، بتنسيكي منها، لأنه أنا بحكي لمصلحتك، وما حدا بده مصلحتك أكتر من أخوكي.

يخرج والقلق يسري في دمائه، فهو لا يعرف حقيقة كيف سيتعامل مع الأمر، فينتظر الصباح على أحرّ من الجمر، ليتشاور مع أحد ما فيما عليه أن يفعل قبل الساعة الواحدة ظهرا.

ألق رمضان

تصحو ياسمين على أصوات المسحّرين في المدينة التي لا تنام، ويصحو فيها الحنين لذاك الماضي العزيز، قلبها أكثر تماسكاً، فتلبس حجاب اليهوديّات وتتردّد بالخروج، قبل أن تلمح خروج أحدهم من الحوش، فتتشجّع، وتتسلل لصلاة الفجر في المسجد الأقصى.

تملأ رئتيها الضعيفتين من عبق الصباح، وبخطى أمريكية واثقةٍ تنزل الدرج الداخليّ الواصل بين بيتها وباب الحوش، تتجاهل نظرات اليهوديّ المتطفلة والتي سقطت عليها من خلف الستارة، تعرف أنه يشكّ فيها، وأنه سيدرك حيلتها إن عاجلاً أو آجلاً، فتصرف الفكرة من رأسها، وتركّز على إبلاغ رسالة أبيها لأمّها، وترفض القلق فالوقت رضا، ويرتعش قلبها وهي تبدل حجابها في ذاك الزقاق.

على قدمتين واثقتين، وقلب تخفف من دموعه تصلي الفجر، في جوٍّ إيمانيّ خاشع، خروج الناس إلى صلاة الفجر مهيب، وكأنك تزحف إلى الله، فيصير الجسد خفيفاً محلّقاً في فضاء الله الرحيب.

بعد الصلاة، حثّت الخطى إلى قبر أمّها، هذه المرّة جلست أمام القبر بسنواتها الثمانية والأربعين، تحمل ماضيها برضا، وقلب هادئ، تبتسم للقبر، وتمسحه بكفّها، وتضع خدّها عليه، تهمس له أن الآن عدت، عدت لأخبرك كم أحبّك أبي! ظلّ وفيّاً لذكرى الورد، وقضم من أجلك آلاف الورود، ولاك عروقها، أنت محظوظة يا أمّي بهذا الحبّ الكبير.

مكثت أمام القبر حتى شروق الشمس، عادت بعدها لتجلس في قبّة الصخرة، وتريح قلبها على روح التاريخ وتصلّي، إنه السلام الداخليّ أخيراً، فينبش القلب مفتّشاً عن أفراحه، ويسيطر عليها الشوق لماجدة، صديقة

الطفولة، وتحنّ إلى منابع الأمان في طفولتها البعيدة، فتذهب إليها هذا الصباح، تمشي في طريق مدرستها بشوق كبير، تستسلم لأوّل مرّة للذكريات دون ألم، ذاك الاستسلام المطمئنّ.

أمام باب المدرسة في شارع الزهراء توقّفت ياسمين تطرق الباب بعد ثلاثين سنة، يحدوها الحماس والحنين، تطلب رؤية ماجدة، وتقول للحارس: قل لها صديقتك.

في ممر طويل غير مسقوف، وقفت ياسمين تنتظر، وقلبها يتفحّص المكان، تأمّلت النصب التذكاريّ للراحلة هند الحسيني يمين الحديقة، فيغصّ قلبها: رحم الله أمّنا هنداً. وتراقب الأعمال الحديثة في يسار المؤسّسة، تلك الساحة الفارغة إلى اليسار، تحوّلت إلى ملعب للأطفال، فيه أراجيح وألعاب.

جاءت ماجدة نافدة الصبر، صباح اليوم الأول من رمضان، وتوقّفت أمام ياسمين بنزق قبل أن تحدّق بوجهها، وتتساءل بشوق مبهم: ياسمين؟

- ماجدة!

تتصافحان، ثم تبتعدان قليلا، وتتأمّلان بعضهما، ثم تمسكان كفي بعض، وتضحكان، وتبتعدان، ثم تتعانقان عناقاً طويلاً، قويّاً، وغامراً.

- أكاد لا أصدّق، قالت ماجدة، قبل أن تلتصقا جنباً بجنب، وتسيران بتلقائيّة إلى ساحة المدرسة، وكأنما لم تفترقا.

تغيّرت بعض ملامح المكان، ولكنّ الأرواح التي سكنته ما تزال عالقة فيه، فلاح لياسمين وجه أمّها تلتهم الوردة لتخفيها عن عيون المشرفة، فرقّ قلبها، واهتزّ!

- أين اختفيت كلّ هذا الوقت يا ياسمين؟

تبتسم ياسمين: ثلاثون سنة مضت كلمح البصر في أمريكا، لا بدّ حدّثتك أسماء عن الحادث المروّع، ووفاة ابني.

وتجد ياسمين في نفسها رغبة للبوح، فتستدرك: تهشّمت السيارة عليّ، واختلط الحديد باللحم والدمّ، كان انتشالي من السيارة أصعب ما مررت به في حياتي، ربما ساعة، حتى تمكّنوا من إخراجي من بين الحديد، وأنا أمسك برأس ابني الميّت بكفيّ وأمنّي نفسي بأنه مغمى عليه وسيصحو. يا الله ما أصعب الموت!

وجه ماجدة يتقلّص من شدّة التأثّر: ما زلت تلك الفتاة المكابرة يا ياسمين، تردمين الحزن داخلك.

- وأنت لم تتغيّري، ما زلت دافئة كأمّ!
- هل تصدقين أننا في الثامنة والأربعين، وعلى أعتاب سنّ اليأس!
- أعتقد أنني يئست وانتهى الأمر.

لا تلتفت ماجدة لدعابة ياسمين، تحدّق في شيءٍ ما أمامها، وكأنّما تحدّث نفسها: ربّيت في حياتي أكثر من ألف فتاة، وسمعت كلمة ماما ماجدة ربما ملايين المرات في حياتي، وكأنني لم أسمعها! ظلّ فؤادي يتحرق ليكون لي ابنة!

- كلهنّ بناتك يا ماجدة، ما تقومين به عمل عظيم.
- إنها أمومة مزيّفة كأمومة البنات للدمى، لا دم فيها، عند أوّل توبيخ، تقول الفتاة لصديقتها: يالها من مشرفةٍ لئيمة.

موجوعةٌ ماجدة، وبائسةٌ، تحاول ياسمين أن تروّح عنها قليلا: وماذا بعد أيتها المشرفة اللئيمة؟

وتضحكان، وتتحاشيان المواضيع الملغومة، فتقول ماجدة: وماذا بعد يا ياسمين؟ أكملي حكايتك.

- دخلت في غيبوبة لثلاثة أشهر، عدت بعدها نصف إنسان إلى البيت، حيث بقيت بعدها مع عزيزة وجراحي، وحزني الكبير، قال لي يونس أن أبي كان قد جاء ليطمئنّ عليّ بعد الحادث، وأنه بقي في أمريكا طوال شهور علاجي، وبقي أسبوع بعد عودتي للبيت، وأنني طردته، لكنني صدقاً لا أذكر أيّ شيء من هذا كلّه، كل ما أذكره أنني كلما فتحت عيني أو أغمضتها رأيت عمرا.

- يا إلهي، من فرط عذابك يا عزيزتي، لم تدري بنفسك.

- ربما.

- وكيف سارت حياتك مع زوجك بعد الحادث؟

- استغرق الأمر عاماً أو ربما أكثر، حتى بدأت أهتمّ بالحياة من جديد، بالأحرى، حتى عدت ألمس الأمومة في صدري حين أتعامل مع عزيزة. أما حياتي الزوجيّة فقد مضت سنواتٌ طويلةٌ قبل أن أستعيد إدراكها، لكنني لم أفقدها يوما.

- كيف هذا؟

- الزواج رباط مقدّسٌ يربط قلبين بعروة وثقى، قد يرتبط الزوجين بعروة الحبّ، أو التفاهم، أو الأولاد، أو المصلحة، أو التوافق الاجتماعيّ أو حتى الماديّ، نحن كان بيننا حزنٌ كبير! حزننا على ابننا عمر كان عروتنا الوثقى، وبعدها عقدنا عروة أخرى من حرصنا على عزيزة.

- ألم تفكّري بالإنجاب بعده؟

- لا، حاول يونس كثيرا أن يقنعني بالإنجاب من جديد، ولكنني في قرارة نفسي لم أكن أريد أن أكون أمّاً لطفل غير عمر، كنت كلما ألحّ علي يونس بالفكرة، شعرت أنني لو فعلت لكدرت عليه صفو برزخه. ثم إن الأصعب من فكرة الإنجاب كانت فكرة استعادة العلاقة الجسديّة بيننا، ولم أكن أريد ذلك.

- لماذا؟ هل تخجلين من ندوب جسدك معه؟

- لا أعرف، كنت أفضل أن يبقى يونس رفيق درب، على أن يعود رفيق سرير، ربما لأنّ جرساً ما كان معلقاً على قلبي، كلما حاولت أن أركن إلى يونس رن وجلجل، أفكّر أحيانا، أن الفتاة التي تكبر في حضن أمّ تعاني من خيبة عاطفيّةٍ كبيرةٍ سببها أبوها، لن تتمكّن من منح ثقتها لأيّ رجل آخر، أشعر أحيانا أنني منذ طفولتي معطوبةُ القلب، وغير قابلة للحبّ، أو الاطمئنان، أو المتعة.

- وكيف شعرت حين قرّر أن يبدأ حياةً زوجيةً من جديد؟

- في الواقع لقد دفعته دفعاً إلى ذلك، كنت أشعر نحوه بالذنب الكبير، فهو قد تجاوز حزنه على ابنه، وكان الأمل يزهر داخله، ويريد أن يعوّض على نفسه وينجب طفلاً آخر، رأيت أنّه من الخير لي وله أن يتزوج، فقد كنت أضعف من احتمال وجود زوج في حياتي، بل حتى نصف الزوج أحياناً يرهقني، كان عادلاً جداً معي، وكنت أريد أن أتجنّب خطأ أمّي مع عزيزة، وأن أفصل بين عجزي كزوجة عن مواصلة الحياة إلى جانبه، وبين حاجتها له كأبّ.

- ورغم كل هذا أشعر أنّك وزوجك متفاهمان أكثر مما تقولين.

- بلا شكّ يا عزيزتي، بيننا طفلٌ ميّت، وحزنٌ كبيرٌ كما قلت لك، ماذا عنك أنت؟ كيف تسير حياتك؟

- حياتي يمكن أن تتلخّص في جملتين، تربيّت في ملجأ، وأمضيت عمري أعمل به مشرفة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، بلا إجازات، وكلّ شيء يشبه كل شيء.

- لعلّ الرتابة هي الوجه الآخر للاستقرار.

- لقد اعتدت على حياتي، وألفتها، وصرت كالسمكة، إذا خرجت من المؤسّسة أموت.

- والقلب خال؟

- كلهم يبعيونني الكلام الرخيص، وأنا شبعت من هذه المهاترات، مع التطوّر التقنيّ الحديث، صرت أتسلّى بمحادثات هنا وهناك، بين وقت وآخر إذا استبدّ بيَ الملل.

- وهل يستبدّ بك الملل كثيرا؟

تضحك: والله زمان عنك يا ياسمين، اسمعي أنا مربّية قبل أيّ شيء، يستبدّ بي الملل حين يستبدّ بي، المهم أنني لا أبتعد كثيرا، يا دوب أبلّل قدمي بالماء، يعني مجرد كلام وثرثرة.

- لم أنم جيدا أمس، وقد مشيت طويلاً، ونسيت أن أشحن ساقي الاصطناعية، هل يمكنني أن أشحنها في مكان ما هنا، حتى أتمكّن من العودة إلى البيت؟

- لم أفهم، كيف يمكنني مساعدتك؟

- أحتاج إلى مكان أجلس فيه، وأخلع فيه ساقي، ومقبس كهرباء لأشحن فيه الساق.
- هل يمكنك السير إلى العنبر في آخر الساحة هناك؟
- يمكنني، لم ينفذ الشحن، ولكنه ضعيف، هل نسرع في الذهاب؟
- هيّا.

****

مالك يُقلّب الموضوع في رأسه، ويمرّر على عقله، أسماء معارفه، عمّه، وأبناء عمّه، وإخوته، وأخواله، وأبنائهم، وفي كلّ مرّة يتردّد في إخبارهم، إنه بحاجة إلى حلّ، وبينما هو منكبٌّ على أفكاره يقلّب الوجوه في عقله، خطر له الاستاذ فضل، فهو ذو ثقافة سياسيّة عالية، وصاحب تجربة طويلة مع الاحتلال، وفوق هذا رجل ثقة، وليس من العائلة، وهو معلّمه، وسيصدقه النصيحة، ويرشده إلى ما عليه فعله.

يُقلّب الأسماء في هاتفه إلى أن يهتدي لاسمه، ويتصل به مرة تلو مرة إلى أن يجيب: آلووووو

جاء صوته ينمّ عن نفاذ صبر وانزعاج. فيردّ مالك بلطفٍ كبير: أستاذ فضل، صباح الخير، أنا مالك راضي، كيف حالك؟

فيعيد فضل وراءه: مالك راضي؟ مالك راضي؟ من مالك راضي؟

فيقول مالك بصوت مرتبك: مالك يا أستاذ، كنت طالباً عندك في الثانويّة قبل ثلاث سنوات، أخو حمزة، صديق بركات ابن أخيك محمد.

يقاطعه فضل: آه، آه، آه، طيّب مالك قولي أنا مالك ابن جيرانكم في الواد، أليس هذا أسهل؟ المهم، تفضّل يا مالك، كيف أساعدك؟

- في الحقيقة أحتاج مساعدك في أمر، لا يصلح التحدّث فيه على الهاتف، وهو أمرٌ مستعجل، فهل ..
- تعال، أهلا وسهلا، بانتظارك.

دقائق قليلة، وكان مالك واقفاً بالباب، وفضل يرحب به، بصوت مشوب بالنعاس: أهلا مالك، زمان عنك يا بنيّ، تفضّل.

يجلس مالك مستعجلاً الحديث، والقلق يطفر من جوانب فمه مع حروفه المرتبكة: الموضوع مهمٌّ وخطيرٌ، وأنا محتاجٌ رأيك ومشورتك يا أستاذ، ومش عارف من وين بدّي أبدى؟

فقال فضل باهتمام: ابدأ من الأول، واهدأ. أنا واثقٌ أن الموضوع أصغر مما تعتقد.

- آمل ذلك. باختصار، أختي رانية تعرفها أكيد؟
- صحيح درستها العام الماضي للثانويّة العامة. ما بها؟
- تتعرّض لمحاولة إسقاط أمنيّ، وأنا لا أعرف كيف أحميها؟

بدا على فضل الاهتمام الحقيقيّ، فسأله: تتعرّض لإسقاط أمنيّ، أم محاولة إسقاط أمنيّ؟

- محاولة.
- إذن اهدأ وحدّثني برويّة، شخصيّ أم هاتف؟
- هاتف.
- الهاتف معك؟

استخرجه مالك بسرعة: هذا هو.

فقام فضل بسرعة، وأحضر وعاء كبير مملوء بالماء، استخرج الشريحة وقصها قطع صغيرة بالمقص، واستخرج بطارية الهاتف، ثم وضع الهاتف في الماء، والتفت إلى مالك، وهو يقول: الآن حدثني، من الذي يحاول إسقاطها، وبماذا يهدّدها.

- هو جنديّ (إسرائيليّ) على الحاجز، وصل إليها باسم مستعار على حسابها على الفيسبوك، ومن خلال رابط ما، استطاع الوصول إلى صورها على الهاتف، وأنت تعرف صور البنات، ويهدّدها بصورها.
- يهدّدها بنشر الصور، إذا لم تفعل ماذا؟
- إذا لم تذهب إليه اليوم الساعة الواحدة، عند مدخل عطروت.

فيقول فضل بثقة بالغة: لا تقلق، الأمر لا يستحقّ التفكير فيه أبدا، أولا عليك أن تدرك، أنه أخذ صورها لتهديدها، فالصور تصلح للتهديد، ولا تصلح لأي شيء آخر، وثانيا: الشاباك لا يستطيع إجبار أحد على أن يصبح عميلا، إنه يبتزّ الناس فقط، ليأتوا طوعاً، وطالما أنها لن تذهب، فليس ثمة شيءٌ تخاف عليه، وثالثا: الصور شغلتها صغيرة، هي صور شخصية أليس كذلك؟

- صحيح، ولكنها من مناسبات بفساتين غير مستورة.
- يا عزيزي، حتى لو كانت عاريةً تماماً، الأجساد ملقاة ببلاش في كلّ مكان، وكلّ البشر بشر، هذا الأمر يجب ألا يكون مصدر تهديد لأحد، الشرف هو ألا نبيع أنفسنا، وما دام ليس هناك فيديوهات وسخة، ولم يتم تصويرها في فعل مشين لا سمح الله، تبقى مسألة الصور ثانويّة، إنه يهدّدها بكم، يهدّدها أنه سيوهمكم بأنه حصل على صورها منها، وما دمتم متفهمين للأمر، فليس ثمة ما يخيف.
- هكذا ببساطة؟

- طبعاً، وأبسط أيضا، انسى الأمر، سينتظرها اليوم، وسيحاول الاتصال بها، قد يتصل بهاتف البيت، ليضغط عليها ويدفعها للخروج، من الأفضل أن تبقى حولها في البيت، وأن تراقب هاتف البيت الأرضيّ، وهاتف أمّك أيضا. سيحاول الوصول إليها من خلال فتاة ما، وابتزازها للمرّة الأخيرة، ويهدّدها بنشر الصور، وقد ينشر واحدة من الصور ويهدّد بنشر البقية إن لم تأتي، عليك أن تتعامل مع الأمر ببرود أعصاب شديد، وتدرك أنه إذا فشل اليوم فلن يعود، هذه ليست علاقة عاطفيّة، إنها بالنسبة له وظيفة، إذا وجدها صعبة تركها إلى غيرها، والأهم أن تتذكر دائما أنه لا يستطيع إيذائها أبداً، ولا يستطيع إرغامها على فعل أيّ شيء، إلا إذا هي خافت وذهبت تحت سيف الخوف، وأنا لا أرى أن الصور التي بحوزته تُشكّل تهديداً كبيراً، إذا مرّ اليوم، انتهى الأمر.
- وهل تنصحني بإخبار أحد في العائلة احتياطاً إذا ما نشر الصور؟
- لا، عندما ينشر الصور، تتدخّل وتقول، هاتفها مخترق، وقد أتلفت الهاتف، كن حاسماً فيما تقوله، كي تغلق باب الأسئلة كلها، وبعد أن يمضي اليوم، عليك أن تعرف لماذا اعتقد الشاباك أنّ أختك ستنفعه؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنهم لا يختارون العملاء بسهولة، ولولا أنهم يعتقدون أنّها قادرة على الحصول على معلومات أمنيّة مهمة، أو تنفيذ مهمّات أمنيّة مهمّة، لما اختاروها.
- بماذا تفكريا استاذ؟ انصحني.

- أفكر أن للأمر علاقة بك أنت أو حمزة، أو لعلها انخرطت في الحركة الطلابيّة، ولديها القدرة على الاطلاع على بعض الأمور، راقبها، وحذرها، واحميها.
- سأفعل إن شاء الله، شكرا لك، وأعتذر إن أزعجتك هذا الصباح.
- لا عليك، المهم ادعيلي أرجع أعرف أنام، أنا ما بنام من غير أكل، والدنيا رمضان.

غادر مالك وهو مطمئنٌّ يضحك.

ترميمُ الجسور

لو أنّ النساء يأخذن الحياة ببساطة كالرجال، ولو أنّ الرجال ينسون كما تنسى النساء لتحقّق التكامل، ولكنْ لا النساء يتساهلن مع الحياة، ولا الرجال ينسون!

تقف ياسمين بين إخوتها الثلاثة في بيت كان يوماً بيت جدّها قبل أن يصبح بيت أبيها الجديد، يتقاسمه مع ابنه إدريس وعائلته، ولا تدري كيف اتسع البيت لكلّ هذه الأجساد، إدريس وأسرته، محمد وأسرته، وفضل، وهي! أخت كبيرة بين ثلاثة رجال التقتهم بعد ثلاثين سنة من الغياب، فإذا بهم يعاملونها وكأنّها كانت طوال الوقت أختهم، ويجتازون قطيعة العمر هكذا ببساطة، وتنسى هي في غمرة بساطتهم أوجاعها وتستسلم لسعادة اللحظة.

تستسلم لمراقبة المشهد في أحد الزوايا، وتبتسم لفضل الذي أقبل يحمل صحناً ممتلئاً بقطع البطيخ، فتسأله ممازحة بصوت خافت: ألم تعد زوجتك بعد؟

- ليس بعد، ستعود غدا إن شاء الله.
- وهل ستواصل النوم على الأريكة؟

فيجيبها بمرح: بل أغضب على سرير الزوجية، فعندما تعجز العقول عن حلّ المشكلات نترك الأرجل تتحاور، فالأرجل أعقل من الرؤوس في المشكلات الزوجية!

فاجأتها جرأته، فتضرب بكفّها ذراعه: ولك عيب، الدنيا رمضان.

يضحك: رمضان مين؟ خلص أفطرنا!

ويسألها محمد عن مذاق (الكبّة)[1] . فتقول: إنها شهية. فيباغتها بقوله: آه والله زاكية، مش أنا اللي عملتها. فيفيض قلبها ضحكاً، ويسألها إدريس باهتمام: أين تبدّلين حجابك؟

- في زقاق (حوش دودو) بين (باب الحديد) و(سوق القطانين)، هناك منطقة عمياء، لا تلتقطها الكاميرات.

- كوني حذرة، فاليهود يقظون، ولن تخدعيهم لوقت طويل.

- أعرف، ولكنني لن أمكث طويلاً، وأرجو أن يستمرّ الأمر حتى النهاية.

وترمق أباها الذي لا يكفّ عن مراقبتها بطرف عينها، وهي تقول في سرّها: حسناً، إنهم رجال طيّبون، لكنّي لا أعرف كيف كان سيكون الحال، عندما كانوا أطفالا.

وترافقهم إلى صلاة التراويح، تسير هي رفقة أبيها، وهم وراءهما، فتصبح المدينة عائلة، ويرقص المكان على نبض الرضا في أعماقها، ويغادرها الشجن أخيراً، ويتوقّف قلبها عن التأرجح بين زمانين، فتتنفّس الحاضر كما هو، وتعيشه حتى آخر لحظة فيه!

---

[1] مقبلات شعبية شائعة في موائد رمضان.

في طريق عودتهم، تأخّر أبوها عنهم قليلاً مع رفاقه، وكأنما يفسح لهم المجال ليتعارفوا أكثر، يضحك محمد ويخبرها وهو يشير إلى شجرة بعينها في ساحة الأقصى: هنا أكلت قتلةً من الحجّ أبو إدريس وفرّقت على البلد، فيضحك إدريس: آه بتتذكر؟ فيلكزه بمرفقه: كلّه منك!

– هناك في (الليوان)[1] يقول فضل، كنت أسترق النظر إلى مؤخّرات النساء في صلاة الجمعة وأنا أعبث قرب أمي.

يقهقهون، وتكاد ياسمين تختنق من شدّة الضحك: إنت من يومك هيك؟

– أتعرفين يا ياسمين؟ يقول محمد، أكثرنا طيشاً كان إدريس، لا تنخدعي بوقاره، فقد نجح باستدراج فتاة ساذجة وهو في السادسة عشرة، إلى (زقاق البوس)[2]، ليقبّلها هناك، وشيت به يومها، فبات موثق اليدين والرجلين، ومربوطاً إلى سرير أبي.

يضحكون، بيد أن ضحكةً إدريس مشوبةٌ بالخجل، فغمغم: الله يلعن الجهل!

وتضحك ياسمين لضحكهم ولطفهم، يتذكّرون المكان وهم فيه، ربما تكون القدس أكثر المدن شجناً، يشتاقها أهلها وهم يطارحونها العشق صباح مساء، ولا تشبع منها قلوبهم أبدا، إنها مدينة ذات سطوة! لا يبارحك القلق من أن

---

[1] الممر الجانبي المسقوف في باحات الأقصى، تصلي فيه النساء في أيام الاكتظاظ كالجمع وأيام رمضان.

[2] اسم زقاق منزو عن الأنظار في القدس العتيقة.

تلفظك، فتستيقظ لتجد نفسك ممنوعاً من دخولها، لذا يتشبثون بالتذكّر، وكأنّما يحفرونها في قلوبهم كالنقش!

ليس أروع من اجتماع العائلات في رمضان، حتى عندما تكون الولائم متلاحقة، ولنفس أفراد العائلة، يظلّ لها بريقٌ ساحر، وفرحٌ خفيّ، تلمحه في وجوه الأطفال المبتهجة، وفي اجتهاد النساء في تنويع الأطباق، وفي ازدحام ذكريات الطفولة على ألسنة الرجال الذين يجدون أنفسهم في أجواء عائلية حميمة توقظ فيهم طيش الطفولة، وجنون المراهقة، فيتبادلون نكاتٍ قديمة، ويضحكون وكأنّما يسمعونها لأوّل مرّة.

فتكون ليومين متلاحقين ضيفة في بيت محمد ذي الشخصيّة المرحة، والوجه المحبّب، إلى بيت فضل الذي ألحّ عليها لترافقهم إلى صلاة التراويح، كي تنسج معهم ذكريات، تراودها بعد سنوات فتدمع!

فضل رغم فظاظته أكثرهم حساسية، وذو قلب رقيق، نقيٍّ كطفل، لا يتردّد في البوح: ما أروع أن يكون للمرء أختٌ بعد كل هذا العمر!

في صلاة التراويح في المساجد من عام لعام، تصادف أشخاصاً لم تلتق بهم منذ سنوات، وأشخاصاً لم تخطّط للقائهم، وآخرين تنتظر من العام إلى العام لتلتقي بهم!

****

تستجيب ياسمين لكل الدعوات التي تتلقّاها، وكأنّها تستريح من نبش الماضي في بيتها في عقبة السرايا، فتأخر عودتها إليه، فتبات ليلتها في بيت أخيها فضل، لتغادره إلى بيت أمّ أنس، التي استقبلتها كزوجة أخيها يونس، وليس كحماة ابنها أنس، وكأنّها تريد أن تلقي الصنارة في الزمن لتلتقط منه سويعات صفاء.

رافقتها ياسمين إلى المطبخ، وهي تراقب قلبها المجهد كقلب أمّ، لقلوب الأمّهات مجسّاتها الخاصّة لقياس الضيق في صدور الأبناء، لكنهنّ يتحاشين التعمق فيما وراء وجوه أبنائهن الباهتة، كي لا ترديهنّ الحقائق في منحدرات عذاب الضمير.

لا يمكن للأمّ تجاهل تلك البقعة المهترئة في أعماقها، والتي تذكّرها دائماً أنها مسؤولة بطريق ما عن كل ما يحدث للأبناء.

قلب أمّ أنس مسكونٌ بالقلق، يخبرها منبهها الداخليّ أنها انشغلت بأمر حمزة وغفلت عن رانية، وأن خطباً ما ألمَّ بالفتاة، فذهب بحمرة خديّها، وأورثها هذا الوجه البائس، فتستعين بياسمين التي تجد نفسها في موقف شديد التشابك، تقول لها: إنها لا تخبرني ما بها، ولم تخبر خالتها أسماء، ولا بنات أخوالها، ولن أسأل صديقاتها، أخاف أني آجي أكحّلها أعميها، أفكّر أنها ربما تتوقع أن خالتها أو بنات أخوالها سيخبرنني في النهاية، لعلها تناقش معك الأمر الليلة، فربما تطمئنّ لك، لأنك غريبة، وقد تعتقد أنّ ما ستقوله لك، لن ينتهي إليّ.

- سأحاول يا أمّ أنس، ولكنّي أتوقّع أنّها لن تخبرني.

ليلا، وعلى سرير واحد، توجهت ياسمين إلى رانية، بقولها: رانية يا ابنتي، أمّك قلقةٌ عليك، وتظنّ أنّ خطباً ما ألمّ بك، وطلبت مني أن أعرف منك ما بك، وأنا بدوري أطلب منك أن تطمئنيها، وحتى لو أردت أن تحتفظي بسبب ضيقك لنفسك، فإني أرجو منك أن تبذلي جهدا أكبر في إخفاء حزنك عن أمّك، أنت تعذبينها معك، وتجعلينها تشعر أنها فشلت في أن تكون محل ثقتك.

أطرقت رانية لبرهة، وقالت: أنا محتارةٌ يا خالة، الموقف صعب، لا يمكنني احتواؤه في قلبي، وأخشى أنّ حال أمّي سيكون أسوأ لو عرفت ما بي.

- هات أخبريني، لعلّي أساعدك.

تخبرها بكل شيء، فيبدو على ياسمين الاهتمام والقلق: وماذا فعل مالك؟

- مالك، أتلف الهاتف، وألغى الحساب، ومنعه من الوصول إليّ عبر الهاتف الأرضيّ، فقد اتصلت فتاة ما تطلب التحدث إليّ الساعة الواحدة والنصف من ذلك، واغلق الهاتف بوجه إحداهنّ حين اتصلت تطلبني من هاتف أمّي، وطرد إسمت من الباب بلباقة، وأعطاها معلومات مضلّلة، قال لها: أنني خرجت في رحلة إلى الجولان ولست في البيت، وأنّ هاتفي ربما نفذ شحنه.
- جيد، وهكذا انتهى الموضوع، أليس كذلك؟
- لا أعرف، مساء، جاءتني أمّي بهاتفها، وقالت لي صديقة، وبعد أن رددت التحية على الفتاة المتصلة، التقط هو الهاتف، وقال لي أنه

يعطيني فرصةً أخيرة قبل أن ينشر الصور التي معه على المواقع الإباحيّة.

- وماذا قال مالك عن هذا التهديد؟
- قال، أعلى ما في خيله يركبه، إن صدق التهديد، ووصلت إلى أحد من أهلنا أو معارفنا، قلنا لهم هاتفها ضاع، ومن وجده تصرّف بالصور التي عليه، واللي إله عنا إشي يجي ياخده.
- وأنت؟ ماذا تقولين؟
- أنا قلقةٌ جدّا يا خالة، أعرف أنّه لن يستطيع إيذائي أو الوصول إليّ، ولكنّي قلقةٌ، وخائفةٌ أن يحرق سمعتي إن صدق تهديده، ونشر الصور في المواقع الإباحية.
- لا تقلقي لن يفعل، في العادة الشاباك في هذه الحالات يهدّد ولا ينفذ تهديداته، فلا تقلقي، ثم إذا تضاعف في قلبك القلق، تذكري أن أمّ المؤمنين وزوجة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، اتهمت بشرفها، ولنا في هذا مواساة وعبرة، فلا تبالغي، وهو في سبيل شرفك الوطنيّ الحقيقيّ، أي في سبيل الله.
- يا الله يا خالة، ما أجمل كلامك! فعلا، زوجة النبي عله الصلاة والسلام اتهمت بشرفها، ولست خيراً منها.
- المهم الآن يا بنيتي، علينا أن نجد شيئا نقوله لأمّك القلقة عليك، وأن تتماسكي وتسيطري على قلقك أمامها.
- ماذا سنقول لها؟
- فكّري بشيء له علاقة بالدراسة.

- فكرة، قولي لها أنني قلقة من ألا أقبل في تخصص الفيزياء الذي أريده، وأنني بانتظار ظهور قائمة المقبولين، خائفة من الفشل.
- وهذا الأمر يقلقك في الواقع؟ أقصد هل سيبدو الأمر منطقيّاً ومقبولاً لأمّك؟
- أكيد، إنها تعرف كم أجتهد في الدراسة، وتعرف أنّ الفيزياء تحتاج إلى علاماتٍ جيّدة في الفيزياء نفسها، وأنني أواجه صعوبةً في تحصيلها.
- جيّد.

أيقظت أمّ أنس ياسمين قبل الجميع للسحور، متلهفةً لسؤالها عن ابنتها، وحشدت ياسمين مواهبها كلها لاتقان القصة التي ستوريها لأمّ أنس حول قلق ابنتها من الإخفاق في الحصول على قبولٍ في تخصّص الفيزياء، لتبرّد نار قلبها، فتعدّ صحنين من الجبن والبطيخ لياسمين التي تجرّ نفسها متوكأة على الأشياء في البيت، بعدما تركت ساقها الاصطناعية على الشاحن في غرفة رانية، وتقول أمّ أنس بنبرة قاطعة: ابقي اليوم عندنا، ونذهب معا إلى عزومة الأهل في الرام.

- صحيح، نسيت أن العزومة في الرام، أنا عارفة ليش هالتكاليف؟
- لقد كثرنا، بنات أمّ صالح الثمانية وعائلاتهن لوحدهنّ جيشٌ من المدعوين، فكيف بالجميع؟ على العكس القاعة أوفر، تكاليف القاعات في الرام ليست عالية، والطعام هو الطعام، هكذا يجلس الجميع بأريحية، ونعود كلّ إلى بيته دون تعب الطبخ والجلي، وتنظيف البيت.
- على رأيك.

في القاعة تاهت ياسمين في الوجوه الكثيرة، والأعداد الهائلة، فلاذت بأسماء، وجلسن متجاوراتٍ، يراقبن الأمهات الشابّات، مشغولات بصغارهن، وينصتن دون كثير اهتمام لما يقال هنا وهناك، حول حمل هذه، وطبع ذاك الصغير، أو تلك الصغيرة، ومرض ذاك الطفل، وحول زيارة كانت مضنيةً بسبب بكاء طفل ما ونكده، وحول علاقة تلك بحماتها، وعن تقدّم إحداهنّ في الدراسة، وطقم كنبايات أعادت إحداهنّ تنجيده، ومطبخٍ غيّرت إحداهن مقابض دفّاته، وأخرى اشترت سريراً لابنتها، ومحادثاتٍ كثيرة، ولغطٍ كبيرٍ حول أمور تجد ياسمين وأسماء أنفسهنَّ خارجها، ياسمين بحكم الغربة، وأسماء العازبة وسط الزوجات والأمّهات، وتمرّرُ أسماء سؤالها لياسمين: أين ستباتين الليلة؟

- لا أعرف، لقد زرت إخوتي الثلاثة، وزرت أمّ أنس، ولعلّي أعود إلى عقبة السرايا.
- كأنّك لست متحمسةً للعودة إلى البيت.
- في الحقيقة، نعم، أشعر أنّني أحتاج بضع أيّام أخرى قبل أن أتمكّن من العودة إلى البيت، إن جدرانه تهاجمني.
- إذن، تعالي عندنا الليلة، وغدا نلتقي بماجدة، ونفطر في الجاليري.
- جيّد، ولكن أين هو هذا الجاليري؟
- في قصر محمد إسعاف النشاشيبي، حجزنا طاولة لشخصين، غداً صباحاً نؤكّد الحجز لثلاثة أشخاص.

ياسمين الأرقة منذ ليلة أمس، استسلمت للنوم في غرفة أسماء، فيما بقيت أسماء تلوّن وجه السنين القادمة ببعض الأمل.

****

كأرضٍ محايدةٍ لا تحمل ثقل الماضي، تلوح لها صورة القصر الكبير في الشيخ جراح، قصر محمد إسعاف النشاشيبي، حين مرّت بجانبه بسيارة حسن الذي أصرّ على توصيلهما إلى ماجدة في المؤسسة.

كانت تنتظرهما بفرح طفلة يتيمة، ما زال قلبها يرقص للخروج من المؤسّسة التي أفنت فيها عمرها. بقلب مرحٍ وأرجلٍ متثاقلة، سارت ياسمين وأسماء وماجدة من المؤسّسة إلى القصر، مروراً بنزلة حيّ الشيخ جرّاح، هنالك حيث لا ذكريات تؤرّق قلوبهن التي اعتادت الحجّ إلى شارع صلاح الدين وباب العامود في ذلك الزمن.

قبل موعد الأذان بنصف ساعة، جلسن حول طاولة صغيرة، في زاوية (الجالري) اليمنى، وانتظرن الأطباق الرئيسيّة التي يقدمها المطعم لجميع رواده. يضحكن ملء قلوبهنّ التي شابت رؤوسها، وما زال سحر الطفولة يعبث في خصلاتها، ثلاثتهنّ عشن حياةً قاحلةً يابسةً، فيذكرن نسرين، صديقتهنّ الرابعة، والتي شاركتهن قسوة الحياة وجفافها.

على حذرٍ تذكرها أسماء التي تعرف الشرخ الكبير الذي ضرب علاقتها بياسمين منذ حادثة ربيع: كلّ عام نجتمع على مائدة الإفطار الرمضانيّ مع نسرين، لكنّها هذه الأيام مسافرة، ستعود بعد غد، ربما نلتقي مرّة أخرى.

فتقول ياسمين: كيف هي أخبارها؟

تردّ ماجدة: أووه، نسرين ما شاء الله عنها، صارت دكتورةً نفسيّةً، وأسّست مركزاً للصحّة النفسيّة.

فتقول ياسمين، وقد تصدع ثباتها لذكر نسرين: وهل تزوّجت؟
تردّ أسماء: لا، تعرفين ما كان بينها وبين ربيع، ظلّت وفيّةً للذكرى.
تقول ياسمين: الله يوفّقها.

وتطرق كمن يسحبه الحزن إلى الأسفل، فتباغتها أسماء: أليس غريباً أن تكون ياسمين أكثرنا حزناً، وهي الوحيدة بيننا التي أحبت، والوحيدة بيننا التي تزوّجت، والوحيدة بيننا التي صارت أمّا؟

فتردّ ماجدة: شايفة بالله عليك!

فتقول ياسمين: صحيح أنّكما عجوزتين لئيمتين، تحسدان المهموم على همّه، على كل حال، ماذا تعتقدان أنّه قد فاتكما لأنّكما لم تتزوجا؟

- أنت أخبرينا.
- كان عمر سيكون تعويضاً كافياً عن أسى العمر كلّه، لكنّي حين فقدته، عرفت أننا لا نخسر حقاً إلا تلك الأشياء التي امتلكناها يوماً، لا يمكن لأحد أن يفقد شيئاً لم يكن له، حين لا تحصلين على فرصةٍ أن تكوني حبيبةً فأنت لن تخسري يوماً قلباً أحبّك، وحين لا تحصلين على فرصة لتحبّي أحداً، فأنت لن تخسري أبداً حبّ حياتك، وحين لا تمنحك الحياة فرصةً لتكوني أمّاً، فأنت لن تخسري يوما ابناً، ولن تكوني ثكلى أبداً.

تحاول أسماء تلطيف أجواء الحزن التي خيّمت عليهنّ، فتغمز ماجدة:
فش فايدة فيها، هاي الغمّ عندها كيفا ومزاجا، تتعاطى نكداً والله أعلم.

فتضحك ماجدة: والله أعلم.

وتبتسم ياسمين، ويكملن سهرتهن بعيدا عن حقول الذاكرة الملغومة.

رجعت ياسمين إلى بيتها ذلك المساء تحمل باقة ورد، اشترتها خصيصا لتجرب اختبار الحب للرجال الثلاثة الذين اخترقت سهامهم قلبها على امتداد العمر.

اختبار الحبّ

باقة الورد بين ذراعي امرأة عربية في وقت متأخر من الليل، تهمةٌ مخلّة، ترى أهي كذلك بين يدي يهوديّة متدينة؟ تسحب ياسمين وردة جورية من الباقة، تدسها في حقيبتها، وتترك الباقة على مقاعد الانتظار في محطة الباصات باب العامود وتمضي، تتسلّل ياسمين في حارات القدس العتيقة بقلبٍ مطمئنٍ بالعروبة، خفّاقٍ بخجل، وعينين مرتبكتين، تتلعثمان في قراءة وجوه الناس حولها لباقة الورد بين ذراعيها.

كلصٍّ غشيمٍ تدخل الحوش، وتستغرب للحظةٍ خلوَّ وسط الحوش منهم، فتسرع إلى بيتها، تُزيح الأمريكيّة عن قلبها مع إدارة المفتاح.

هذه المرّة جلست ياسمين خلف الباب مباشرة، لتلتقط أنفاسها، تقاوم القلق، وتستسلم للذكريات، ربيع أوّل شابٍّ أيقظ فيها الأنوثة، ومسح عن عينيها براءة الطفولة يوم حدّقت في جسده وهو يمشي أمامها، فرأته بعيني أنثى، تسترجع وجه ربيع، وتستلّ ورقةً من وردة جوريّة حمراء، وتضعها في فمها، وتتذكّر مشيته خلفهما هي ونسرين، ومروره من جانبها، وتكاد تختنق: ما أمرَّ طعم الورد! فتسرع لتشرب الماء وتغسل مرَّ الورد في فمها، وتدرك كم هو صعبٌ أن ينشغل المرء عن هذا الطعم المرّ! إنه حتما حبٌّ كبير، ذاك الذي سكن قلبي أمّي وأبي، فاستساغا مرّ الورد!

وتهمس لقلبها: أصلاً لم يكن ربيع يحتاج إلى اختبار، كان مجرّد شابٍّ عابر، أحبّته صديقتي وأحبّها، وإن كانت مشاعر الانجذاب الطفيفة التي

سكنتني لأسبوع أو اثنين، قبل أن أدرك حقيقة علاقته بنسرين، تصلح أن تسمى حبّاً، فإنه حبٌّ ولد ميتاً، فلتقرأن عليه الفاتحة، وتهديه باقة وردٍ لتذبل على قبره.

ويقع بصرها على آلة التسجيل، فتفطن إلى أنّها لم تقلب الشريط! فتقلبه وتجلس مرهفة القلب.

أجفلتها ضحكة أبيها القادمة من الخزانة، وهو يقول: ها قد عدت يا ياسمين، خشيت أن تبقى رسالتي الصوتية سجينة الشريط طويلاً، قبل أن تفطني إلى قلب الشريط.

اعتدلت ياسمين على السرير، وهي تغمغم: نسيت أمر قلب الشريط.

وكأنّما يعرف أنّها كانت ستقول هذه الكلمات بالذات: لا بأس يا ابنتي، عرفت أنّك ستهرعين لقراءة الرسالة التي أخبرتك عنها في الوجه الأول، وستغفلين عن قلب الشريط.

إنه يقرؤها بطلاقة، وتكاد تجثو أمام آلة التسجيل، لتقبّل قدميْ أبٍ وقف في مربّعات الحزن الكبيرة حتى تساوت جروح فؤاده مع مساحتها، هي التي حسبت أنّها لم تبك طوال العمر، لم تفطن إلا أخيراً، أنها كانت تمارس أشدّ طقوس الحزن قسوةً، فيبكي فيها كل شيءٍ دون دموع!

ويهزّها الصوت: ياسمين، سأخبرك أمراً لا أدري هل سيسعدك أم يحزنك، في تلك الليلة عندما أخذت منك رسائل سامر لم أحرقها كما أوهمتك، لقد خبّأتها لك، وقرأتها مراتٍ ومراتٍ بعد ذلك، كلّما أردت جلد قلبي قرأتها،

ما كان لقلب فتاة أن يصمد أمام كلمات مفعمة بكل هذا الوجد! لقد أحبّك هذا الرجل حدّ الجنون، فإذا التقيتيه أبلغيه خالص اعتذاري عما سبّبته له.

تفتح ياسمين قلبها عن آخره، ليسكب أبوها كلماته فيه كماءٍ شديد الغليان فيحرق أوصالها، وتكاد تهتف: لماذا الآن؟

قولي له إنّه كان لا بدّ لي من حمل سوط العقل لأهوي به على قلبه المجنون، إنّها القدس العتيقة، المدينة التي لا تنسى، ولا تغفر! إنها المدينة التي يقيم الواحد فيها مئة عام، وتظلّ تنعته بالغريب، مدينة لا تستر فضائح العشاق، ولا تسامح رجلاً سكب كرامته تحت نافذة فتاة شوقاً ووجداً، وتدقّ عظام رجل آخر قدّم ابنته لمن بكاها بعد منتصف الليل في الحارات، وهذى باسمها حتى حفظته الجدران، جدران القدس لا تكفّ عن وشوشة المارين، ولا تهدأ فيها حمّى البوح. لن تعرفي أبداً قسوة أن تسير امرأةٌ وسط مدينة تلعنها!

أبلغيه أنني أعتذر له عن كل ما سبّبته له من ألم، لقد أزهقت سعادته، كلما التقيته في هذه المدينة التي باتت كئيبة، وأضيق من قرية صغيرة، يعرف الناس فيها وجوه ساكنيها، داهمني عذاب الضمير، لقد لبس ثوب الحداد على فقدك منذ ثلاثين سنة ولم يخلعه، أردت حمايتك من كلام الناس، فخلّدك بثوبه الأسود الذي يعرف الجميع سرّه، يعرفون أنه وفاءٌ لحبٍّ عظيم ضاق به البوح فاتسعه الكتمان! أبلغيه اعتذاري يا ياسمين، أعرف أنّك ستلتقينه حتماً، فقلبك لن يشفى دون لقاء.

يصمت برهةً، قبل أن يردف: لا أشرطة أخرى يا ابنتي، خبّأت لك الرسائل في الفراش، استخرجيها إن أردت، وافعلي ما تشائين، لم تعد القدس العتيقة

ذات المدينة، ولم أعد أخشى عليك همس جدرانها، فقد تبدّل الساكنون، وغابت روح المدينة في عذاباتها، وفقدت الذاكرة!

البكاء ينهمر أخيرا على قلبها المحروق، لا شيء يسعف روحها مثل البكاء، وكأنّها كانت تدّخر دموعها ثلاثين سنة، لتذرفها في هذه الأيام التي ستلقى بها فلسطين، تبكي على سرير يحتضن رسائل العشق البريء في زمن القذارة!

كيف تجلس على فراش يضمّ رسائل سامر؟ تلك التي حفظتها ذات نشوةٍ عن ظهر قلب، وغنّتها لقلبها حتى رقصت فيه الدماء، وخبّأتها ككنز ثمين، وقبلتها كأمنية عزيزة، تلك الرسائل التي تفتّحت على كلماتها منابع النشوة، هل تجلس عليها الآن؟

يا له من زمن! أجلسنا فوق كل الأشياء التي قدّسناها! منهكة، مبعثرة، غائمة العينين، ورغم ذلك فرّت من حرائقها إلى النوم.

****

استيقظتْ فزعةً، وكأنّما ضاق بها المكان، فهرعت تغادر، وقد أنساها اضطراب قلبها الحذر، فتلقّفتها اليهوديّات في صحن الحوش بابتسامة: مرحباً بك، أين اختفيت طوال الأيام الماضية.

لا تعرف من أين جاءتها سرعة البديهة، هي المجمّدة التفكير، جرّاء برد الماضي، بلكنةٍ أمريكيّة متقنة: كنت في المستشفى.

– سلامتك، أنت الآن بخير؟

من ظلال القدر الوارفة، أن يكون سكان الحوش اليهود أمريكيين، فقد اعتادت طباعهم، وتحسن التعامل معهم: نعم، شكراً للرب، الآن أنا بخير.

- هيا رافقينا إلى صلاة السبت.

ردت بابتسامة أمريكيّة بلهاء، وكادت ركبتاها تسقطان اضطراباً، فتقول بلباقة: لا أظنني قد تعافيت تماما.

فتبادرها تلك الأم المتدينة راشيل: هيّا جاسمين، لا يمكنك قضاء الوقت وحدك هكذا، لا تكوني انطوائية.

فتبتسم لها: حسناً، هيّا.

تسير وقلبها يضجُّ بالأسئلة: هل سأصلّي صلاة اليهود؟ وهل سأفعل هذا في رمضان؟ ماذا لو كان في طقوسهم شربة ماء؟ هل سأخسر يومي؟ وفي نفس الوقت، يُحرّك أشواقها الفضول كما يحرّك طباخٌ ماهرٌ مرقةً في قدر، أريد أن أرى الحائط الكريم، لأذهب.

لقد أصبحت بينهم وانتهى الأمر، لا سبيل للتراجع، فلتجرفني مياه القدس العتيقة إلى حيث تشاء، يا مدينتي أنا قطعةٌ منك، فلن أخاف الولوج إلى أيّ مكان فيك، فحيثما توجّهت في القدس، فثمّ وجه الله!

أظهرت تحفّظاً كبيرا، وعدم رغبة في الكلام، لتحميَ لسانها من سقطات الحروف، ولتخفيَ ملامح وجهها المرتبك، ورغم ذلك حاولت راشيل التودّد إليها: من أرسلك إلى هذا البيت؟

أطلقت أفكارها لتستعيد كل ما تعرفه عن سكن اليهود المتديّنين في القدس، علّها تكون مُوفقةً في إيجاد إجابة تخرجها من هذا الموقف، قالت بكلّ ما بقي فيها من ثقة: أنا هنا في زيارة قصيرة لإتمام بحثٍ علميٍّ حول التعايش في المدينة، وقد رتّب لي البروفسور المشرف على البحث هذه الإقامة.

- هذا جيّد، إذن فقد اشترت الدولة البيت من ذاك العجوز العربيّ، لقد كانت الأمور ستكون سيّئةً لو أنّه بيننا، كنت أخاف على طفلي اتسحاق منه، ولا أرتاح إلا حين يغادر.

لم تعرف ماذا تقول، فهذا العربي رغم حزن العمر أبوها، فغيّرت الموضوع: أشكرك على هذه الدعوة، لطفٌ كبيرٌ منك أن تشجّعيني للصلاة معكم في جبل الهيكل.

- على الرحب والسعة، ستجدين روحانيّة هنا ليس لها مثيل.
- صحيح.

هزّ الخشوع كيانها وهي تجتاز الحاجز العسكريّ الذي على أول الطريق المؤدي إلى باب المغاربة، رغم كل الخوف، إنه الركن العزيز المسلوب من القدس، تسير بينهم، تتماهى بهم، وفي وجدانها هبط اليقين، واستيقظت الفلسطينية رغم آلام عظامها المهشّمة تحت أنقاض زلازل الأمس، وعبث الزمن الكئيب، وليل الغربة البارد، وسنوات الأرق. وسكنتها روح الفداء، فغضّت طرفها كي لا يلمح أحد تلك الروح التي انبعثت في أعماقها. أمام ركن محدد من الحائط توقفوا فتوقفت، حملوا كتبهم المقدّسة وأخذوا يرددون صلواتهم، ويهزّون رؤوسهم بأصوات متداخلة، ألصقت الأمريكية وجهها في الحائط،

وهام قلبها الفلسطيني بصلاته: يا الله أنا المسلمة التي تعرف، لا يخفى عليك حالي، اقبل وقوفي هذا بين يديك، وارحم ضعفي وعجزي عن إظهار هويتي، تقبَّل مناجاتي بأن لا إله إلا أنت وحدك، وأن محمدا عبدك ورسولك، في هذه البقعة التي توقّف فيها البراق، اقبل دعائي نيابة عن كل المسلمين الذين أوصد في وجوههم هذا الباب، لم أكن يوما حريصةً على الدين والتديّن كما أنا الآن! لعلّك بحكمتك يا ربي أردت لقلبي النفاد إلى اليقين بمعاني ألوهيتك الحقّة عبر ثوب اليهوديّات الذي أرتدي، وفي هذه الوقفة وهذا الاهتزاز، أقاوم بقسوة رغبةً جامحةً تسكن ركبتي للانحناء وترك جبهتي تخرّ بين يديك في هذه البقعة الطاهرة وليكن ما يكون. ربي يداهمني البكاء، أنا لا أتخلى عن ديني ولا عن هويتي، ولست أخشاهم يا رب، لكنني أتعذب، ربما تجد روحي المعلّقة بين الماضي والحاضر في هذه البقعة، وهذا الطقس التعبدي الخلاص، ثمة عذابٌ مستقرٌّ في جذور الروح، أنت وحدك تعلم منتهاه وقسوته، يا رب فخلّصني من آلامي!

لا تدري كم مكثت هناك، لكنه وقت طويل، أتعبها الوقوف، خرجت مع الجموع وقد توسطت الشمس السماء، تعود مع العائدين، تدلف إلى بيتها، وقد أسعفتها بضع كلمات تبادلتها مع تلك الأمريكية، تلقي نظرة خاطفة على الحوش، وكأنّ سوط عذابٍ نفذ من بصرها إلى أعماقها، علم (إسرائيل) يرفرف فوق الحوش، لم تنتبه لهذا الأمر من قبل، ولاحت لها وجوه الجارات الغائبات، أم عماد، وأبنائها، أم جلال الدين وزوجها وبناتها، وأبو خليل وزوجتيه، ومناكفتهما الدائمة.

أطلّت وجوهٌ من الماضي تحتّ الخطى كالنصال في القلب المعذّب، تبدّلت تلك الشبابيك الخشبية الحميمة بشبابيك ألمنيوم حديثة، وتبدّلت الأبواب الخشبيّة المزخرفة، والمهترئة الدهان، بأبواب (ملتي لوك) حديثة، وتغيرت الوجوه.

لاحت منها التفاتةٌ إلى تلك النافذة المقابلة لنافذتها، فرأته هناك، بذات النظرة الثاقبة التي نفذت إلى أعماقها فأربكتها رغم كلّ محاولاتها لمغالبة الارتباك، له نفس عيني السكناجيّ، وكأنّه هو! أيكون هو؟ تسارعت نبضات قلبها، وتخلّصت بلباقة من الحديث، متذرعة بالصداع، وبحاجتها للنوم، وفرّت مسرعة القلب ثابتة الخطوات إلى بيتها.

خلف الباب خلعت حجاب اليهوديات، وسحبت عن المشجب حجابها الإسلامي، ولملمت قواها الخائرة، لتقف متجهة للقبلة، ولتترك روحها تغتسل، سجدت بين يدي الله اعتذاراً عن تنكرّها لإيمانها به، بكت بحرقة ندماً على ساعة الاهتزاز العابث أمام حائط: لا أعرف يا ربي لم فعلت هذا؟ ليس الخوف الذي دفعني لذلك، أعماقي مبعثرة ككرة صوف مبلول عبثت بها مخالب قطّة، وأعجز عن سلّ خيط واحد أتتبعه لأفهم ذاتي.

رغم عينيها المغمضتين في السجود، تراءت لها عيني السكناجيّ، تخرجان من البلاط وتحدّقان فيها، فزعت من سجودها، لتراه أمامها: هل سأجنّ في هذا البيت؟ وتراءى لها ربيع يبتسم ابتسامةً شريرةً: ما الذي نزع الطيبة عن وجوه الميتين؟

بقلب مرتجف نزعت الغطاء عن الفراش، وتحسّست مكان الخياطة، وفتّقتها لتستخرج رسائل سامر، ثلاثمائة رسالة أو تزيد، تدسّها في حقيبتها، وتفرّ من الخيالات، أبوها يبتسم وكأنّه اكتشف تعلّقها المشين بالرسائل.

تلقي نظرة على الحوش من خلف الستار، لا أحد في الساحة، لا أحد على الأدراج، السكناجيّ ليس خلف الستارة، وتسلّل لها الرعب إنّه خلفها وفي بيتها، وكادت تصطدم به، لولا أن طردت صورته عن ذهنها، وخرجت بلباس اليهوديات، لتجد السكينة في مكان آخر.

تمشي في البلدة القديمة، وهي تشعر أن عيني السكناجيّ تثقب ظهرها، فتتظاهرت بالتوقّف لتلتفت خلفها فلا ترى أحداً، وتسارع إلى الزقاق، لتلبس الحجاب الإسلامي وتمضي، تاركةً قدميها تقودانها إلى حيث تشاءان.

****

فرّت من مخاوفها إلى ماجدة، فتح لها البواب بعد أن رآها من كوة الباب الخارجي، وقال لها: ماجدة في السكن الداخليّ، في العنبر الذي تشرف عليه. ذهبت إليها، فاستقبلتها بوجه ناعس، قبّلتها بتلقائية: اعذريني لم أنم جيداً ليلة أمس، سآخذ قسطا من النوم، وبعدها نتحدّث.

– ما جئتك إلا لأنام!

سرعان ما غطّت ماجدة بالنوم، واستلقت ياسمين على أحد الأسرّة في العنبر، فتراءت لها أمّها، صبيةً تنام على السرير المجاور، فتتساءل: هل كانت أمّي طفلةً سعيدة؟ وكأنّ روح أمّها تحوم في المكان، هل بدأت أجنّ؟ وجه أمّها غاضبٌ وكئيبٌ كما في تلك الليلة التي اكتشفت فيها أمر رسائل

سامر، ثم حزينٌ حدّ التلاشي كما في تلك الليلة التي باتتها ياسمين منتحبةً بعدما سقطت عليها جلدات أبيها، تعسٌ كما في ليلة زفافها، غائمٌ ومشوبٌ بزرقة كما يوم وداعها الأخير!

هل ستطاردني أمي هنا؟ يا إلهي، لا أريد إلا أن أنام قليلا!

تفرّ إلى الساحة المدرسيّة، وتستند إلى جذع شجرة، فتعلق بصرها بفندق (الأمريكن كولوني)[1]، فتلمع في رأسها الفكرة كوميض، الفنادق أسرَّة حميمة بلا ذاكرة! فتمضي إليه كمسحورة، لا تخبر أحداً عن مكانها، تدفع ألف دولار تحت الحساب ببطاقة الائتمان التي بحوزتها، وتعبر الممرّ الضيّق للفندق بين صفّي الغرف على الجانبين، تغلق الباب خلفها، ثم تفتحه لتعلق على مقبضه بطاقة: الرجاء عدم الإزعاج. وتهجم على السرير الفخم، اختارت غرفة زوجية، لتحتفي برسائل سامر بعد كل هذا العمر. شيء ما يجري في أوصالها، شيءٌ يشبه الشبق، فتطفئ هاتفها المحمول، وتسلم جسدها للسرير، وتستسلم للنوم العميق طويلاً، في مكان لا تطاردها فيه وجوه الميتين، مكانٍ بلا ذاكرة!

****

تصحو فيلطمها السقف الغريب، ورويداً رويداً تستعيد الحكاية، أنا في الفندق!

لا تعرف إن كان الوقت ليلاً أو نهاراً، فتطلّ على حيّ الشيخ جراح، فتراه غارقاً في عتمة الليل، فتستجيب لنداء المعدة، وتخلد إلى رسائل سامر تقرأها لتشبع نهم قلبها لاجترار الذكريات، الرسائل الأولى خجلة ومهذبة، الرسالة الأولى بعد المئة متكلّفة، تخفي اشتهاءً فاضحاً خلف حروفها الثقيلة، والرسالة الأولى بعد المئتين حارقة، مغمسة بشوق واشتهاء باذخ الجرأة، أشعلت الحرائق في

[1] أحد الفنادق العربية في حي الشيخ جراح في القدس.

أوصالها الميّتة، وحلبت في أعماقها ماء الحياة وهي على مشارف سنّ اليأس، القراءة تعيد لها شبقها المراهق بكلماته المواربة، وسقوط حصونها أمام الكلمات الجريئة، ما زالت تنام داخلها ذات الفتاة التي كانت ترتعش نشوةً تحت وقع الكلمات في زمن لم تكن تعرف فيه سبباً آخر للرعشة! ترى كيف كانت ستكون قبلته الأولى؟ وكيف هو طعم شفتيه؟ وهل كان عبوره إلى ماء الحبّ ليحمل طعم الهزيمة؟

سرت الرغبة في أوصالها كدبيب النمل، يضربها نداء الجسد لأول مرةٍ منذ عقود، فتفرّ إلى الحمام الملحق بالغرفة، يناديها حوض الاستحمام، فتستجيب، تملؤه ماءً، وصابوناً لطيفاً، وتستسلم له، تغمض عينيها وتغطيهما بمنديل تسدله على وجهها، كي لا ترى ندوب جسدها، ولا تتحسّس ساقها المبتورة، تستسلم للحوض كامرأة باذخة الإغراء، وتترك الماء الدافئ والصابون يفعل فعله فيها، وتستعيد الكلمات الحارقة، وتستعيد معها ألقها السابق.

نداء الجسد وقحٌ وصفيق! فتحمد الله أن عافاها من وجع الحرمان طوال العمر المتقشف، فلطالما كان جسدها زاهداً، ولطالما كانت روحها المعذبة خرساء!

تغادر حوض الاستحمام إلى السرير المريح، لتنام نوماً هنيئاً، تصحو بعده على وجه السقف الغريب، وقد أمضها الجوع والعطش، حتى بدت كحبّة تين جافّة، فتطلّ من النافذة، إنّه الليل، فتطلب من مطبخ الفندق وجبةً فاخرةً، تقول للموظّف في خدمة الغرف: لو كنت جائعاً جداً، ماذا ستأكل؟ ابعث لي وجبة كالتي تريد أكلها.

ضحك الشابّ على الخطّ: سيكون الحساب ثقيلاً يا سيدتي.

- لا عليك، المهم: أنا لا أشرب إلا الماء.

فتحت هاتفها أخيرا، لتعرف كم مضى من الوقت في هذه الغرفة، هاتفها محتقن بالرسائل، تتعاقب فيه الرنّات، فأخذت تقلّب الرسائل التي تدفّقت رناتها تباعاً، رسائل كثيرة من يونس: أين أنت؟ لقد سحب من بطاقة الائتمان ألف دولار لصالح فندق (الأمريكن كولوني)، ماذا جرى؟

وسرعان ما هاتفها: أين أنت؟ لماذا هاتفك مقفل؟

- في فندق، كنت متعبةً وأردت الانفراد بنفسي لبعض الوقت.
- بعض الوقت؟ منذ الأمس وأنا أحاول الاتصال بك.
- أنا آسفة، ولكني كنت بحاجة لأن أكون وحدي.
- أنت طوال العمر وحدك يا ياسمين، لقد بدأت أقلق من لعبة الشفاء هذه، في المرة القادمة، قبل أن تطفئي هاتفك، أخبريني.
- حسناً.

تلتهم الطعام بسرعة، وتشرب الكثير من الماء لتروي شرايينها الجافّة. وتستلقي بعدها لتقرأ الرسائل المكتظّة في هاتفها، رسائل إدريس كلها قلق، ويسألها أن تطمئنه، رسائل محمد مرحة، رغم أنها تسألها أن تطمئنه كذلك، رسائل فضل مليئة بالتقريع على طريقة المعلمين، وتسألها أن تطمئنه عنها.

تسحب نفساً عميقاً، ما أجمل العائلة! ترى هل هذا اكتشاف العقد الخمسين من العمر؟

رسالة رانية حزينةٌ حدّ البكاء، مليئةٌ بالوجوه الباكية، تعتذر عن انهيارها، أين أنت يا خالة؟ لقد جاءنا قرارٌ فوريٌّ بهدم منزل خالي محمود، أمهلوه عشرة أيام فقط، الوضع هنا تعيس جدا، زوجة خالي فقدت أعصابها، وتخشى كثيراً على كريم، إنّه طفل حساس، وقد يسبب له انهيار البيت انتكاسةً نفسيةً قويةً، الكلّ هنا قلقٌ وحزينٌ، ليتك تحضرين، ربما يساعد حضورك في التخفيف على

كريم قليلاً، لقد أحبّك واطمأنّ إليك يوم ضربه المستوطنون في الأقصى ذاك النهار.

تتابع تاريخ الرسالة، إنها الثلاثاء! الساعة الآن التاسعة والنصف ليلا، تتأهب لتذهب إليهم، وتتردّد قليلاً أمام رسائل سامر، فترتّبها وتدسّها في حقيبتها وتخرج، لا تفارقها صورة كريم ذي السنوات الثمانية، وقد تهشّم فيه الأمان، أنه يعيد لها عمراً إلى حضنها.

****

كبيت العزاء بدا لها بيت أبي يوسف، تخيّم عليه الأحزان الثقيلة والأرق، أم كريم ساهمة وقد أخلدت أطفالها إلى النوم، محمود مكابر، صالح يراوغ ليبدّد الحزن: خدوا الولاد عند دارسيدهم لحدّ ما نهدّ البيت.

فيقول محمود: طيب وبعدين؟

فيتدخل حسن: ولا قبلين، أنا محوش قرشين، وكنت ناوي أحطهم في دار في كفرعقب مئتي متر، بنشوف مقاول ابن حلال، يشطبها شقتين بشهرزمان، القرشين اللي معي بكفّن، وبتنقل أثاثك عليها.

فيقول محمود بأسى بالغ: أولا: أنا مش رح آخذ شقا عمرك، خلّي القرشين إلي معك إلك، اشتري الشقّة اللي نفسك فيها، وشطّبها، وإن شاء الله السنة الجاي بنفرح فيك. وثانيا: إحنا ما معنا شهر، بدنا نهدّ بعشر أيام.

وتخرج أم كريم عن صمتها لأول مرة: والعمل؟

يردّ محمود: بكرة بندوّر ع شقة في كفرعقب، نتأجّرها، وننقل الأثاث عليها، ومثل ما قال صالح، خودي الولاد عند أهلك، واتفاهمي معاهم.

وتدخلت ياسمين: كلّما تظاهرت بأن الأمر طبيعيّ وسهل، كلما كان اجتياز الأمر على كريم أسهل، يمكنك أن تقدّمي له الأمر على أنه تجديد جميل وجيد

في حياتكم، وأن تحرصي على تجهيز غرفة مميزة لها، هكذا لن ينتكس نفسيّاً، إن مشاعره مرتبطة بك، إذا حزنت سيبدو له الأمر حزيناً، وسيحزن، أمّا إذا كنت شجاعةً، فسيكون مثلك شجاعاً.

تردّ أم كريم: إن شاء الله يا أمّ عمر إن شاء الله.

فتستدرك ياسمين: سأكون معكم في كل خطوة، يشهد الله أنّ كريم ربنا يسلم عمره، عزيزٌ على قلبي، كما لو كان ابني.

يقول صالح: أصيلة يا خيتي أمّ عمر، طول عمرك أصيلة.

وعادوا إلى وجومهم وصمتهم. وانقضت تلك الليلة بطيئة على الوجوه الساهمة، فلم ينم أحدٌ تلك الليلة، وقد وقعوا جميعا تحت سطوة الأرق، أما ياسمين التي ضربتها زلالزل الأمس، فقد غفت على سرير أسماء قليلا، قبل أن تستيقظ فزعةً على صوت بكاء وجلبة، فخرجت بسرعة، لتجد يوسف ينتفض بقلق، وأمّه تربّت عليه، وقد خرج الرجال بسرعة، فتسأل: ماذا حدث؟

فيجيبها يوسف وكأنما هو بحاجة لتكرار الحكاية: اطلعت على المسجد، وكان محمد ابن الجيران سابقني، وقفت سيارة، ونادت عليه، ولما راح، ردّ عليهم، نزلوا زجاج السيارة، وسحبوه من الشبّاك وطلعوا زيّ الصاروخ، معرفتش شو أعمل، صرخت عليهم، كان الجار مصطفى في الشارع، شغل سيارته ولحقهم، وأنا ارجعت أقولكم.

- هل تقصد أنه اختطف؟
- يهود، كانوا يهود، سكناج.
- هو الانتقام إذن.

أمّ صالح: الله ينتقم منهم بس، صارلهم أسبوع، من يوم ما اختفوا الجنود الثلاثة، وهم قالبين الدنيا، هدول مالهمش دين، أبصر شو يسوّوا في الولد؟

أسماء: يا رب مصطفى يلحقهم، الأوغاد يبقدروش على الرجال، راحوا يخطفوا الولد.

أمّ يوسف: ما حدا بقلب أمّه هلكيت، قمن نروح عندها، الناس للناس.

وخرجن جميعا، وأمّ يوسف تنادي ابنتها الكبيرة: انتبهي على إخوتك الصغاريا دعاء.

الأحداث تتسلّل إلى قلب ياسمين فتقلب طاولة الأيام عليها: ترى هل وجدت أمّي من يواسي خوفها عليّ يوم سحبني الجنود إلى المسكوبية دون ذنب؟

لا شيء يهون على أمّه! سلوني أنا عن خوار التماسك في قلب الأمّ، حين يضرب الخطر أبناءها، متماسكةً بدت أمّ محمد، لكنها تعرف بحسّ الأمّ أنّه لن يعود، تعرف في أعماقها أنّه خرج إلى حتفه، تقول إنّه تعجّل في الخروج، ولم يتناول سحوراً كافياً.

تقول ياسمين لنفسها: لا أدري لماذا يتعجّل الراحلون؟ وكأنّ التعجّل من علامات الرحيل!

رجع الجار مصطفى بالخبر: أفلتوا منّي عند منعطف التلّة الفرنسيّة، لم أتمكّن من اللحاق بهم، لقد بلغنا الشرطة عن اختطافه، ليس لنا إلا الدعاء والانتظار.

مصيبة الجيران أنست محمود مصابه: الحمد لله أن مصيبتنا في المال وليست في العيال!

****

صباحاً استأذنوا من جارهم أبي محمد ليذهبوا إلى أعمالهم، داعين لولده بالعودة والسلامة. في الطريق، قال محمود لصالح: لقد فكّرت طويلاً في مسألة البيت وعزمت على استئجار بيت في كفرعقب.

ردّ صالح وهو يهمّ بركوب سيارته إلى عمله: هل أنت واثق؟

- لا أنكر أنني خائفٌ من السكن في ضواحي المدينة، واعتقد جازماً أن بلدية القدس تهدف إلى خداع الناس، واعتماد منطقة كفرعقب من القدس، حتى إذا سكنوها وانقطعت بهم سبل الرجوع إلى مركز المدينة، يسحبون هوياتهم، ويلقون بهم خارجاً، ولكن ليس أمامي خيارٌ آخر.

أمضت النسوة يومهنّ متناوبات على مواساة أمّ محمد في مصابها، وقد وجدت ياسمين نفسها، في أصعب اختبار مع الوجع النفسي منذ عادت إلى البلاد، هي الأمّ الثكلى، التي تعرف حقّ المعرفة معنى الفقد.

مساء فاضت قلوب الناس بالغضب، وانتشر خبر العثور على جثة معذّبةً ومحروقةً، في أحراش دير ياسين، فأرسلوا إلى أبيه ليتعرّف إلى الجثة، دون أن يسمحوا له برؤيتها، واكتفوا بسحب عينة من دمه، ومطابقة الحمض النووي، بينه وبين الجثّة، ليخرجوا له بالتقرير: إنه ابنك!

هل كان أبوه يريد رؤيته حقاً؟ من يقوى على رؤية الموت والعذاب جاثماً فوق وجه فلذة كبده؟

تفجّرت شعفاط غضباً، وقد أجمعوا أمرهم على الردّ، قال الأهالي في اجتماعهم: إن مرّت هذه الحادثة لهم بسلام، سيتصيدون أبناءنا كالخراف، فلنقاوم، وليدفعوا الثمن غالياً، وليعرفوا أننا لن نسكت على قتل أبنائنا.

سرى الغضب بين الأهالي وانتشر، كما تنتشر النار، وخرج يوسف مع الجموع بعد صلاة التراويح إلى الشارع الرئيسيّ، وبأيديهم اقتلع الشبان المقاعد الحديديّة من الأرض، فللغضب قوّةٌ لا تعادلها قوّة! حرقوا سكّة الحديد انتقاماً لحرق الفتى، والتحموا في مواجهات مع الجيش والشرطة التي حضرت إلى المكان، لا شيء يردعهم، لا شيء يرجعهم، لا شيء يخيفهم، يواجهون بكلّ ما يقع تحت أيديهم المتسلّحة بالغضب، ليضمنوا عودة أبنائهم من المدارس سالمين.

ويلحق بهم حمزة، يلفّ قميصه على وجهه، ويواجه متسلحاً بطاقة الغضب، هذه المواجهة التي كان يحلم بها منذ أُطلق سراحه من المسكوبيّة، يقول في نفسه: سنلقّنهم درساً قاسياً، هؤلاء الذين يحترفون الضرب المذلّ على الأجساد المكبّلة اليدين، فليروا كيف تكون المواجهة مع الرجال!

في مواجهات الشوارع لا غالب ولا مغلوب، فتراجع سيارات الجيش المصفّحة متراً إلى الخلف تحت وقع الحجارة، نقطة لصالح المتظاهرين، حرق سيارة الجيش بالزجاجات الحارقة، نقطة لصالح المتظاهرين، تقدّم السيارات هدفٌ في مرمى المتظاهرين، ولن يتقدموا! هذا هو العهد الذي قطعه الشبان على أنفسهم.

تقلق الأمهات بصمت، لا أحد يردع الشبان عمّا يفعلون، إحساسٌ عام بالاستهداف يجتاح الناس، وعلى البالغين حماية القاصرين والضعفاء، وكأنّ عليهم أن يقاتلوا ليعيشوا.

الحديث عن التعذيب، الذي تناقله العائدون من بيت أبي محمد، أيقظ الأوجاع في جسد ياسمين المتهالك، وأخبار الحرق، أعادت لها أوجاع احتراق ساقها في السيارة المحطّمة: يا الله كم تعذب الفتى!

****

يومان من العذاب والغضب، لا ماء يطفئ الحميم المستعر في قلب أمّ محمد الصائمة، الصوم يهذّب الحزن، ويمنح الروح نقاءً، وقوة التسليم لله القدير.

حين دخلت جثّة الفتى إلى البيت، فتحت جهنّم كلَّ أبوابها على قلوب محبيه، يوسف فقد الوعي أمام وجه صديقه المتفحم، وانحسر الحزن قليلاً لينبت الألم الشديد، وفتح العذاب فكيّه ليلتقم قلب أمّه! يا وجع قلوب الأمّهات! أن تعجز عن البكاء أمام جثّة فلذة كبدك، فهذا ضربٌ من الحبّ العظيم! تتماسك كي لا تسمعه شهقات روحك، كي لا يخاف! تطمئنه أنّه ما زال وسيماً رغم حروقه، فتقبل المحروق الغائب القسمات، وتتذكّر أنها ستضعه بين يدي الله، فتهدأ روحها، من سكن الثرى نجا من خوف الدنيا!

****

جثةُ الفتى أذكت الغضب، فازداد التحدّي، واحترقت مدينة السلام بنيران الكراهية! وانقسمت الأحياء على أبنائها، حيث يكثر اليهود، يلاحق اليهودُ العربَ، وحيث يكثر العربُ يلاحق العربُ اليهودَ، صراع وجود!

طويلة مضت الأيام، بطيئة ومراوغة، أسبوع غضب، ثم تتراجع الأحزان وتسكن الهواجس، وتغادر الوجوه عالم ياسمين، ويصبح القلق سيّد الوقت! والسلامة هي الحلم الوحيد، حلم ككل الأحلام، لا يتحقّق!

صباح الأحد، لم يعد يوسف، روى أصدقاؤه أن ثلاثة مستعربين أوسعوه ضرباً، وحملوه في سيارة خاصّة وذهبوا به.

السيارة الخاصّة، جعلت القلق يضرب ضمير العائلة كالهزة الأرضية: أتراه يلاقي مصير محمد؟

لا تملك العائلات في هذه الحالات سوى الانتظار، تبلغ المؤسسات الحقوقية وتنتظر، ويراود الأسى قلب ياسمين بالذات: كنت في مثل عمره يوم

وجدت نفسي بين جدران زنزانة، وبين أنياب الجنود تنهشني، أترى يحتمل الفتى؟ يا الله كيف احتملت؟ اللهم ارزقه الخدر!

في البيوت المنكوبة تصبح الدقائق طعنات غدر، والساعات كجلد السياط على جسد مبتلّ، شُلّت الحياة في بيت أبي يوسف، وصار ساكناً كالقبر، حتى نفخ رنين الهاتف فيه الروح، باتصال من المؤسّسة الحقوقية، تخبرهم أن ابنهم في المسكوبية، فيهرعون إليها رفقة محامي العائلة: الولد صغير.

– لا تقبل الكفالة، ستنظر المحكمة في أمره غدا.

في انتظار الغد، تتجمّد الدموع، وتلهج الألسنة بالدعاء.

****

خرج محمود إلى عمله باكراً وهو يوصي صالحاً: أخبرني بما سيحدث في المحكمة.

محمود لا يبالي كثيرا بالتنكّر، يقود الحافلة الخاصة بشركة الباصات (الإسرائيلية) منذ عشرين سنة، يعرفه الركاب ويعرفهم، عشرون سنة وقت كافٍ ليثبت المرء حسن سلوكه، العمل شيء والمواجهة معهم في باحات الأقصى وشوارع المدينة شيءٌ آخر!

حقدهم المسعور يُحطم قوانين التعايش في المدينة، يتربّصون به، وينقضّون عليه حالما نزل من الحافلة، وكادوا يقتلونه، لا شيء يردعهم سوى تدخل بعض عناصر الشرطة العرب بسلاحهم وقوة شاراتهم، وحسن تورية هويتهم العربية خلف العبرية المتقنة، فيفرّقون جمعهم، ويرسلوه في سيارة أجرة عربيّة إلى المستشفى.

بعد ظهر ذلك اليوم رجع يوسف مع أبيه إلى البيت، وعلى قدميه قيد الإقامة الجبرية: ممنوعٌ أن يغادر البيت لشهر، ورغم قسوة العقوبة بحقّ شابّ في السادسة عشرة، إلا أن رؤيته ذهبت بأوجاع القلق والانتظار.

لم يمكث صالح طويلاً إلى جانب ابنه، فسرعان ما ذهب رفقة أخيه حسن ليطمئنّا على محمود الراقد في المستشفى، تمسّك محمود المثخن الجسد بالرضوض، بالحصول على تقرير طبيٍّ يفيد بضرورة الراحة لعشرة أيام، وهو يقول لصالح: رُبّ ضارةٍ نافعة، هكذا نحلّ مشكلة البيت براحتنا، دون أن نضطر للتوقّف والذهاب إلى العمل.

فيرد صالح: طوّل بالك، هلّا شعفاط بتغلي، لا رح تيجي الشرطة ولا البلدية، خلينا نستفيد من الوقت كم يوم. الله يحمي هالشباب ويمرّق هالأزمة على خير.

اللهم آمين.

البنيانُ المرصوص

صباح الجمعة، حضرت أمّ أنس وأبناؤها للاطمئنان على أخيها محمود وابن أخيها يوسف، فجلس يوسف محدقاً في اللاشيء، ساهماً في وجوم يقطّع نياط القلوب، قال له حمزة: وحدّ الله يا خال، كلنا سنموت، ونيال مين مات شهيد.

فلم يرمش، فقال له مالك: والله ما حدا قدّك يا خال، هي ريحوك من ضرب الحجار، وحجتك معك، إقامة جبرية.

فلم يبتسم، وكأنّه لم يسمع، ظلّ واجماً حتى قالت أمّ أنس لزوجة صالح: أهو على هذه الحال منذ عاد؟

- أمس، كان أفضل حالا.

وقطع حديثهم، هرولة دعاء من باب البيت: أمّي، جارتنا أمّ الشهيد بالباب. فهتفت أمّ صالح: افتحي لها وأدخليها، ماذا تنتظرين.

وقامت أمّ صالح تستقبلها، وما أن دخلت وسلّمت على أهله، حتى احتضنت يوسف الذي أجهش في حضنها بالبكاء، وهي تمسح رأسه وتقول: لقد رأيت محمداً بالمنام أمس، وقال لي: سلّمي على يوسف، وقولي له أن يحقّق أحلامنا، قال؟ ما هي هذه الأحلام؟

- كنّا نحلم أن نكون أطباء.
- فاصرف عنك هذا الحزن يا بني، وفكّر في مستقبلك، كي يرتاح في قبره محمد.

وتلبث قليلاً، قبل أن تستأذن قائلة: عليّ أن أذهب قبل أن يحضر الناس للعزاء.

فترد أمّ صالح: واجبك علينا يا أمّ محمد، والله جيّتك على راسنا.

فتقول وهي تغالب الدمع الذي تجمع في مقلتيها: يوسف بيعرف إنه معزّته من معزّة محمد الله يرحمه.

تخرج، وقد تعلّقت في خطواتها القلوب، أمّا ياسمين فقد انكفأت على نفسها، وهي تقول: يا الله! أيّ قلب تمتلكه هذه المرأة، في هذا الموقف العظيم!

****

قبل الظهر، عاد صالح وحسن، يسندان محمود الخارج توّاً من المستشفى، مع توصية بالراحة، فيهرع إليه كريم باكياً من شدّة القلق على أبيه، وتستقبله زوجته، التي أشرعت باب الدرج، ليوصلوه إلى بيته، فيما لحقهم مالك حاملاً كرسيّاً وهو يقول بنبرته المرحة التي لا تفارقه: قعّدوا العريس، ولنحمله إلى بيته.

فيضحك محمود رغم ألمه: مالك، حلّ عني، جسمي كلّه رضوض ومش قادر أضحك، بطلع خالي بطلع.

ولحق به الجميع إلى بيته، وأسنده إخوته ليرقد في فراشه، وكلّهم يتطلّع إليه بقلق، حتى يوسف، خرج من وجومه، وأقبل على عمّه يطمئنّ عليه.

ويستأثر مالك بالحديث، فيقول لخاله: أرأيت؟ كنت تضحك من ربطة شعري، وتقول لي مثل ذيل الحصان، ماذا نفعتك قصة شعرك الوقورة؟

فيردّ محمود: طلع معك حقّ يا خال.

فتبادره ياسمين: أمس أودع يونس في الحساب عشرين ألف دولار، وقال لي أن أسحبها لك، كي تتدبّر موضوع البيت.

- سلمتم ودمتم، يا أمّ عمر.

فيقول مالك: والله زبطت معك يا خال، هيك بطلع عليك كل رضة بألف دولار.

فيقول محمود، وهو يضحك: طلّعوا هالولد من عندي.

- ولا حدا يلمسني، أنا طالع ألحق صلاة الجمعة بالحرم، وانتوا خلّيكم صلّوا في مسجد البلد، واشربوا غاز، يلّا الحمد لله ع سلامتك خالي، تعيش وتاكل غيرها.

وتعترضه ياسمين وهو ينزل الدرجات: مالك؟

- تفضّلي يا خالة.
- أرجو أن تبحث لخالك عن شقّة جيدة، وتدفع له إيجار سنة، لنعجل قبل انتهاء مهلة الأيام العشرة.
- توكّلي على الله، غداً أنا في إجازة، وسأنهي الأمر.

****

استغرق الانتقال إلى الشقّة في كفر عقب عدّة أيام، انشغلت خلالها ياسمين عن هواجسها، والتحمت مع أمّ كريم في استبسال لتوفّر للصغير انتقالاً آمناً إلى البيت الجديد، أغدقت عليه قبلاتها وتجنّبت ضمّه إلى صدرها المتآكل، جعلته يجمع أغراضه في الصناديق، وحثّت أمّه على أخذه في نزهات طويلة، ريثما ترتّب مع الأخريات أثاث البيت تمهيداً لنقله إلى بيت كفر عقب، وساعدته ليتقبّل البيت الجديد، تركته يتحسّس بلاط البيت وجدرانه، وشاركته فرش سجّادته المحببة لسبونج بوب في غرفته، وطلبت منه أن يشتمّ وسادته، ويرتّب ألعابه، وأخبرته أن البيت غير مرخص، ولهذا سيهدم.

ورغم كل التدابير لم تُعفَ أمّ كريم من وجبات بكاء الصغير. فلا شيء يوقف الأسئلة الحارقة في رأسه: لماذا سيهدم بيتنا؟ أريد العودة إلى شعفاط، هذه العمارة ليست جميلة كبيتنا، لا أريد هذا البيت الجديد.

بكاء كريم وتوسّلاته، تعتصر القلوب، وتكرّس الإحساس بالقهر، فما أقسى أن يخرج المرء من بيته مكرهاً مطروداً!

على هامش الدموع المكابرة، المتدفّقة حزنا على حال الصغير، والمشفقة على قلب أمّه الهشّ، يهدم محمود بيته بنفسه، متحلياً بشجاعة رجل يتقبل آلامه الكبيرة، بصمت ثقيل، يتكدّس القهر في شرايينيه، يجمع حجارة بيته بيديه بعد أن هدمته الجرافات والآليات، ويناولها لمن حوله لينقلوها بعيداً عن البيت، يشارك بنفسه في ترميم هيئة السطح بعد الهدم، وترهقه أسئلة كريم: ليش احنا تركنا بيتنا؟ ليش اليهود بيعملوا معنا هيك؟ أثقلته الأسئلة، فينام من شدّة التعب، ولا تنام الأسئلة في رأس الصغير، ولا تنام الحسرة في قلب أمّه.

مع انتقالهم، عمّ الهدوء الحزين جداً، هدوء ينزّ قهراً، وأصبحت الأخبار أرقاً يقضّ مضجع المدينة، والحزن لا ينام حتى عندما تلتقي الأجفان لبعض الوقت من شدّة التعب.

****

ليلة القدر في القدس العتيقة، لها سطوةٌ وألقٌ، تهيّج الأشجان في الأفئدة المثقلة، فتّتصل ياسمين بأخيها فضل، تسأله أن يقلّها إلى المسجد الأقصى بعد التراويح، فيسألها: أين أنت؟

- في فندق (الأمريكن كولوني).
- حاضر، يا صاحبة الجلالة.

حوالي الحادية عشرة ليلاً، كانت ياسمين تستند إلى فضل، لتسير إلى المسجد الأقصى، فيباغتها: هل لي أعرف ماذا تفعلين في الفندق؟

- كنت طوال الأسبوع الماضي عند أهل يونس، اليوم وصلت الفندق، لأني لست مرتاحة إلى العودة إلى بيت (عقبة السرايا) هذه الأيام، في آخر مرّة، اصطحبني اليهود إلى حائط البراق، أشعر أنهم سيكتشفون أمري قريبا، ولست جاهزةً بعد للسفر.
- ولست جاهزةً للإقامة مع أبي في بيت واحد.
- صحيح.
- وماذا ستفعلين في الأقصى بعدما انتهت صلاة الجماعة؟
- أجلس في زاوية أراقب الناس، وأستعيد ذكرياتي، لا أريد الصلاة.
- لماذا؟ أم أنك ..؟
- أم أنني ماذا أيها النبيه؟! ما أسرع ما ينحرف تفكيرك، لا طبعاً، ليس الذي في بالك، لكنّي لا أستطيع المشاركة في الصلاة في الأقصى وهو مكتظٌّ هكذا، ساقي الاصطناعيّة لا تساعدني على الركوع والسجود مع الناس، أحتاج إلى دقيقة على الأقل لأسجد على ساقٍ واحدة، في وجود الساق الاصطناعيّة، إنها لا تنثني بشكل كامل بسهولة،

تساعدني على السير، على الركض الخفيف، يمكنني ان أجثو ببطء، وأنهض ببطء، ولكنّها ليست فعالة في كل شيء.

- آه فهمت، فكيف تصلّين إذن؟

- في البيت، أصلي معظم الوقت صلاة كاملة بساق واحدة، أو ساقين وآخذ وقتي، في الخارج أصلي على كرسيّ، وفي الأقصى أصلي على كرسيّ، ولكن الزحام اليوم، أين سأجد كرسيّاً؟ وكيف سأحمله؟

- صلي على مصطبة، المهم أن تصلي وإن ركعتين، ولكن قولي لي: كيف يحتملك زوجك بهذه الساق؟

- فضل! لا تطلق العنان لخيالك الأخرق، زوجي متزوج، هل نسيت؟

- صحيح، إذن أنت ستدخلين الجنة مع الصابرات بغير حساب، أم أنّك صرت عجوزاً؟

- لماذا تكرر عليّ أنني عجوز؟ هل تعتقد أن الشباب سببٌ للفخر؟ إن عشت ستصير عجوزاً، وإن متَّ فقد فاتك أن تصبح عجوزاً.

- وهذا تحديدا ما أريد أن أقوله لك، لماذا تريدين أن تضيعي خريف عمرك؟ ألا يكفي أن فاتك الربيع؟ لماذا تمنعين نفسك من زوجك؟ وأنت ما زال بإمكانك أن تصنعي بهجة الجسد والروح.

- ما هذه الحكمة؟ أنت تعاني من نوبات هبوط وارتفاع في العقل؟

- ربما، لكن ثمة امرأةٌ حسبتها عاقلةً، قالت لي مرّة: اغضب على سرير الزوجية، واترك دفء جسديكما يطوي المسائل، أتراها عجزت أن تقول نصيحة كهذه لنفسها؟

- نحن مختلفان يا فضل، أنت تحبّ زوجتك، أنا أجبرت على الزواج بزوجي، وحين وقعت الحادثة، احتضنت نفسي.

- هل تظنّين أنك لو تزوجت من الرجل الذي كنتِ تحبّينه ستكونين أسعد؟

- لا أعرف، لكنه كان سيكون اختياري على أيّ حال، اسمع ربّما يكون يونس زوجاً مثالياً، ولكنّه سيظلّ مفروضاً عليّ، واعتقد أنّ الإنسان لن يسعد في الجنّة لو أنه سحب إليها بالسلاسل.

- كلامٌ جميلٌ، ولكن ثمة مشكلةٌ واحدةٌ، أنت متمترسةٌ حول حزنك يا ياسمين، هل فكّرت يوماً أن تناضلي من أجل السعادة، أعتقد أنّك لا تريدين السعادة حتى لو توفّرت، مشكلتك أنّك لم تغفري، وهذا حقد، أتعرفين؟ عندما كنت في السجن، رافقت رجالاً محكومين مئات السنين، بعيدين عن أهلهم، وحبيباتهم، وأبنائهم، رجالاً في أقفاص، ومع ذلك كانوا قادرين على النبش في الصخر، وزرع شيء من السعادة، ورأيت شبّاناً يدخلون اكتئاباً نفسيّاً، لأنّ عليهم أن يقضوا ستة أشهر في السجن! قابلت رجال بلغتهم أخبار وفاة أبنائهم، وآخرين بلغتهم أخبار هدم بيوت أهلهم، ومرض أحبتهم بأمراض مميتة، ومع ذلك كانوا قادرين على اجتراح السعادة، ما دام الإنسان على قيد الحياة فإنّ عليه أن يعيش، وكي يعيش، يحتاج إلى الحبّ. جرّبي أن تحبّي حياتك.

- بعد كل هذا العمر؟

- أنت فقط بحاجة إلى أن تغيّري مفهوم الحبّ في قلبك، أنا واثقٌ أنّ الحبّ تجمّد في داخلك على هيئة رسالة، ووقوف تحت النافذة،

وانتظار في الطريق، لكنّك لو منحت الحبّ أشكالاً أخرى، أشكالاً تناسب الحياة عمرك، تجربتك، حياتك، لاستطعت أن تجدي الحبّ.

- دعنا نستمتع قليلاً بروعة هذه الليلة.
- اجلسي على هذه المصطبة وصلّي، روعة هذه الليلة تتحقّق حين نصلّي.
- لنصلّي.

بعد صلاة الفجر، عادت ياسمين مع فضل إلى الفندق، وهي تفكّر في سؤاله: هل جرّبت يوماً أن تناضلي من أجل السعادة؟ وتفكر أكثر في نصيحته: لو أنّك منحت الحبّ أشكالاً أخرى، تناسب عمرك وتجربتك، لكنت وجدت الحبّ.

****

تكبيرات العيد تتعالى من مسجد الشيخ جرّاح بعد أذان المغرب، وتصل إليها في غرفة الفندق، وهي مستلقيةٌ على السرير، بعد إفطار متقشّف، طلبته عبر الهاتف: لو كنت مفلساً ماذا ستأكل؟ ابعث لي وجبةً تليق بمفلس.

ولم تكن مفلسةً، ولكنها فقدت شهيّتها. تكبيراتُ العيد ذلك المساء، جعلت هاتفها يهتزّ لمرّات برسائل معايدة من فضل ومحمد ورانية، وأمّ أنس، ويوسف، وأمّ كريم، ومالك، أمّا إدريس فقد اتصل بها: كلّ عام وأنت بخير.

- وأنت بخير.
- ما هي خطتك ليوم غد؟ أين ستكونين؟
- سأكون عند أهل يونس.
- حسناً، سنأتي إليك غدا.

وانفرجت أساريرها، هي التي لم تحظ يوما بعائلة، صار لها أخيرا من يطرقون بابها في العيد ككلّ النساء!

صباحاً، اتصل بها فضل: هل تودّين الذهاب إلى صلاة العيد؟

- لم لا؟

- سأمرّ لأصطحبك من الفندق، لقد أحضرت لك كرسيّاً.

رافقت فضل إلى صلاة العيد في المسجد الأقصى، وأوصلها بعدها إلى شعفاط، كان عيداً لا عيد فيه، فضحايا العدوان المروّع على غزة، وحضور الموت، جعل الفلسطينين يخجلون من الفرح، فلا حلوى لهذا العيد، ولا بهجة! عيدٌ أشبه بالعزاء، ورغم ذلك تسلّل شيءٌ من الفرح إلى قلب ياسمين الباذخة الحزن.

ما أجمل حضور الأب والإخوة يوم العيد! العائلة مؤسّسةٌ عظيمةٌ، كيف لم تفطن إلى جوع والدها لحضن بحجم العائلة في ذلك الزمن البعيد؟ اليوم تدرك أنّه بزواجه الثاني أهداها أسرة تنتمي إليها رغم اختلاف الوجوه، وفرق السن، وهو ما لا يُقدّر بثمن.

بسعادة تحسّست الأوراق النقدية التي دسّها أبوها وإخوتها في كفّها، هي التي لم تعبأ يوماً بالمال، شعرت فجأةً أنها بتلك الأوراق النقديّة فقط قد أصبحت غنيّة!

رحلت بعد أن غادر إخوتها ببعض الوقت، ذهبت لتهنّئ أمّها بالعيد، ولتقضي بعض الوقت مع ماجدة التي تلبس بهاء العيد، رغم أنّها تقضيه مع لا أحد كما كل عام، فاحتفت بياسمين، أولئك الذين لا يُطرق بابهم، شديدو الامتنان لأيّ يدٍ تطرق الباب، فيغدقون عليها حبّهم ومودّتهم ووقتهم وعطاءهم، فكانت ماجدة أكرم الناس مع ياسمين هذا اليوم.

أناخت ياسمين قافلة قلبها في حجر ماجدة، حدّثتها عن رغبتها في فتح صفحة جديدة مع الحياة، فتفتّق ذهن ماجدة عن فكرة: لم لا تلجئي إلى نسرين، لقد أصبحت معالجةً نفسيّةً ذائعة السيط، ستساعدك ليس لأنّها بارعة في مجالها فقط، بل لأنّها نسرين!

- أتراها تريد رؤيتي بعد الذي كان؟
- دعي الأمر لي.

المنعطف

عصراً، رنّ هاتف الغرفة في الفندق: توجد ضيفة في الاستقبال تريد رؤيتك.

هرعت إلى الأسفل، وإذا بها نسرين، لم تغيّرها الأيام كثيراً، ما زالت ممتلئة الوجه والجسد، ذات ملامح قويّة، لها نفس الابتسامة الواثقة، لم تزدها الأيّام إلا صلابةً وعناداً على ما يبدو.

تعانقتا طويلاً، وجلستا متجاورتين في بهو الفندق معاً، تحدّقان ببعضهما وتبتسمان بصمت، قبل أن تقول ياسمين: مضى وقت طويل.

فردّت نسرين: أحضري حقيبتك ولنذهب إلى بيتي.

لم تتردّد ياسمين التي لم يكن لديها الكثير لتحمله، رتّبت أشياءها في حقيبتها الصغيرة، وحملت رسائل سامر، وأنهت إقامتها في الفندق، وسدّدت الحساب.

في طابق أرضيّ ذي مدخل مستقلٍّ في ضاحية البريد، تسكن نسرين، ترجّلتا من الحافلة عند الشارع الرئيسيّ، وأكملتا الطريق سيراً على الأقدام، والجدار يضيق في وجه ياسمين الأفق.

البيت من الداخل حميمٌ، متقشّف، أثاثه بسيط، يصلح للجلوس والاستلقاء، شاشة تلفاز متواضعة، خزانة ذات دفتين، تفوح منها رائحة النبيذ، وفي المنفضة على الطاولة رماد سيجارة، على عقبها أحمر شفاه صارخ، في الزاوية اليمني بابٌ موارب، إنّها غرفة نوم، يتوسطها سرير زوجيّ، وإلى جانبها بابٌ صغير، عند مدخله مغسلة صغيرة، في الجهة اليسرى مطبخٌ مفتوحٌ على شرفة صغيرة، تتسلّل منها أشعّة شمس الصباح.

جلست ياسمين حيث أشارت لها نسرين، التي سحبت من الخزانة الصغيرة قنّينة نبيذ، وأحضرت كأسين سكبت في أحدهما، وهمّت تسكب في الآخر، فأشارت لها ياسمين: أنا لا أشرب.

فقالت نسرين وهي ترفع الكأس إلى فمها: أما أنا فأشرب لأتمكّن من البوح، دعينا نتبادل الأدوار هذا اليوم، أنت تعالجينني، وغداً أنا أعالجك من الوجوه التي تتراءى لك.

- أعالجك من ماذا؟

- من جرح العمر، دعيني أشرب كي أبوح.

- منذ متى تشربين؟

- منذ سنوات طويلة، أتعرفين؟ من أغرب الأمور في حياتنا، أن الذين يسافرون ويبتعدون عن البلاد، يزدادون تمسّكاً بدين الله، ونحن الذين نبقى نزداد بُعداً عنه!

- ماذا بك يا نسرين؟ أخبريني.

جثت نسرين على ركبتيها أمام ياسمين، وضعت رأسها في حجر ياسمين، وهمّت تقول: انتظرت عودتك طويلاً لأخبرك، ولأرجوك أن تغفري لي، من حقّك أن تعرفي الحقيقة كلّها.

- عن ماذا تتحدّثين؟

- عن ربيع، لقد كان ربيع مناضلاً كما تعلمين، وكان حبيبي الذي لا أردّ له طلباً، وقد اتفقت معه على الإيقاع بذلك السكناجيّ، واستدراجه إلى مكانٍ محدّد، ليأسره ربيع ورفاقه، ويبادلونه برفاق لهم في الأسر، في ذلك الوقت كانت عمليات الأسر التي تنفذها الجبهة الشعبيّة ملهمة.

– صحيح، كان منبهراً بتلك العمليات.

– لم يكن السكناجيّ ينظر إلينا، أنا من أغريته بذلك، وغازلته، وتسلّلت بين الجموع لألتصق به، لكنّه كان حذراً، لم يقدم إلا وهو محتم بالجنود، كان ربيع ينتقل كل يوم من سطح إلى سطح، ليراقبنا، وفي ذلك اليوم، حاولت استدراج السكناجيّ بعيداً عن الممرّ الرئيسيّ في الحارة، وأردته أن يلحق بي، لكنه بدلاً من ذلك، سحب ذراعك أنت، فصرخت، وظنّ ربيع أنّنا في خطر، فقتله بالصخرة التي ألقاها عليه، وأرداه الجنود شهيداً، كنت هناك أنظر إليك منهارةً تصرخين، كنت ألهث اضطراباً، وقد شُلّ تفكيري، رأيتك تبحثين عنّي، رأيتهم يسحبونك عن جثة ربيع، رأيتهم يربطون يديك، ويعصبون عينيك، رأيت كل هذا ومشيت في الطريق، وكأنّني لا دخل لي بما جرى، هربت، كنت قد رتّبت أمر اختبائي مع الرفاق بعد العمليّة، في المكان الذي كانوا سيخبئون به السكناجيّ، ولم أخرج منه إلا بعدما انتهت قضيتك، واطمأننت أنّني في أمان، كنتُ خائفةً جدا، فاغفري لي نذالتي.

كلّ شيءٍ في ياسمين يرتعش: كلام كهذا لا يقال إلا على سكر، صدقت يا نسرين! هوت حصون ياسمين أمام الفاجعة: لستُ أنا إذن التي قتلت ربيع؟ لستُ أنا التي صرخت دون سبب، فجعلته يقتل السكناجيّ، دون سبب، فلماذا أتهمتموني بذلك؟

– لا أعرف كيف انتشر هذا التفسير بين الناس، ربما أنه كان محاولةً لصرف تهمة المشاركة في قتل السكناجيّ عنك، وجعل الأمر يبدو كحادث، أو جناية.

– ولماذا تبوحين الآن؟

- لأهوّن عليك عذاب قلبك.
- لا عليك من قلبي، فلا شيء يهوّن عذابه! عندما يهدر المرء عمره حسراتٍ وهو يعتقد أنّه مذنبٌ، تزداد جراحه عمقاً عندما يعرف أنّه كان ضحية! فمن سيعوّض عليَ وجع ثلاثين سنة؟
- بالله عليك لا تمعني في تعذيبي، فقد أرهقني هذا السرّ المدفون في قلبي لثلاثين سنة، أضعاف ما أرهقك جهلك به.

وأخذت تبكي بحرقة، رقّ لها قلب ياسمين: لننس الأمر، أيّاً يكن السبب، فقد رحل ربيع وانتهى الأمر.

- أجل رحل، وأخذ معه قلبي.

فتحتضنها، وتبكيان طويلا حتى تهدأ في قلبيهما الذكرى.

لم تعد ياسمين ونسرين على ذكر أمر ربيع، وكأنّما اتفقتا ضمناً على الغفران، في ذلك المساء وهما على الشرفة، سألت نسرين: ماذا عنك؟ كيف هو قلبك؟ هل ما زال لسامر مكانٌ فيه؟

- مؤخراً أعدت قراءة رسائله كلّها، عكفت عليها، أيّاماً بلياليها.
- هل اشتقت له؟
- أتصدّقين أنني لا أعرف إن كنت أحببته، أم أحببت رسائله؟
- لكنّه مجنونٌ بك، هل تعرفين أنّه سيأتي إلى هنا غدا؟
- لماذا؟ هل يعرف أنّني هنا؟
- لا، هو قادمٌ لزيارتي؟
- هل أنتما على علاقة؟

- علاقة علاج، هو مريض بك، أنت وهمه الجميل، يلبس لك ثوب الحداد على فراقك منذ ثلاثين سنة، ويمعن في جرح زوجته التي تحبّه، ولم تجن منه إلا الإهمال، في حزنه الباذخ وشعره الأبيض جاذبيّةٌ فاحشةٌ، تلاحقه الفتيات والنساء، وهو الثريُّ بالحبّ العقيم.
- وكيف تعالجينه؟
- عبر جلسات إرشاد زوجيّ، ولكنّي أحياناً أطلب زوجته وحدها، وأحياناً أطلبه وحده، وغداً سيحضر وحده.

****

وقف سامر بالباب، ودفعت نسرين بياسمين لتستقبله، عرفها من أوّل نظرة، لم يتفوّه بكلمة، تساقط الدمع من عينيه غزيراً دون بكاء! لم تتغيّر ملامح وجهه، لا شيء سوى الدمع الغزير، وكأنّه اختزنه منذ ثلاثين سنة، بكى كثيراً، بكى طويلاً، لم يرفع يده ليمسح دمعه، ظلّ مثبّتاً نظره في عينيها، يحمل عتب العمر البعيد، يحمل شوق العمر القاحل دونها، يحمل عبء الحبّ، وعبء الشوق، وجرحاً غائراً غزير التدفّق، شديد الانفعال.

كم أمضيا من الوقت في عمادة الدمع؟ تركتهما نسرين وعادت إلى النوم، لتستيقظ بعد ثلاث ساعات لتجدهما غارقان بدمع صامت، وكلّ ما فعلاه هو أنهما استبدلا الوقوف بالباب، بالجلوس حول طاولة المطبخ متقابلين، فتركتهما وغادرت البيت دون أن ينتبها إلى ذلك.

ياسمين الغارقة حتى أذنيها بعذاب الضمير، تهشّم فؤادها أمام بكائه، وشيبه وعذابه، فنطقت في الساعة الرابعة بعد البكاء: أنا آسفة عن كل ما حلّ بك بسببي؟

- لا تعتذري عمّا فعلتِ، يكفي أنّك هنا. عشت عمري أحلم بهذا اللقاء، رسمت له مواعيد، وأماكن، جعلت له طقوساً، تنبأت بكوارث، لكنّني أبدا لم أتوقعه هكذا.

- هل هو أقّل ممّا أردت؟

- بل فوق ما يحتمل قلبي، هنا أنت، أنت هنا، شهيّة كما كنت دائماً، وديعة كما عرفتك، هادئة كما السكينة، أنت! أجل أنت! يا حزني الكبير، يا طعم الفجيعة، أنت يا جنوني، كيف تركتني وذهبت؟ كيف طوّعت لك نفسك الزواج من رجلٍ آخر؟

- كان ذلك رغماً عنّي.

- أعرف، أجل أعرف، أنا أحبّك، أحبّك، أحبّك، أحبّك، أحبّك، أحبّك ملء الأرض، وملء السماء، ملء الثواني والدقائق، ملء العذاب، أحبّك.

ويمدّ يديه ليرفع كفّيها إلى وجهه، ويقبّلهما برفق، مرة، مرتين، ثم وضعهما على وجهه، وقبّل باطن كفّيها، ويتركهما على خديّه، ويغرق ببكاء مرير، فشاركته النحيب.

اقترب منها أكثر، قرّب وجهه من وجهها: لم أتوقف عن الكتابة لك، كتبت لك كلّ تفاصيل حياتي، هُزمت أمام حبّك يا ياسمين، عجزت عن السعادة، لديّ أبناء لم أسعد بأبوّتهم، ظلّت أبوّتي لهم ناقصة، وأنّى لها أن تكتمل وأنت لست أمّهم، منذ رحيلك متّ، لا تنزعجي مما أخبرتك به نسرين عن تدهور زواجي، لقد صرتُ عجوزاً بائساً، عجوزاً ظمئاً، تعبت من مطاردة طيفك، صحيحٌ ما قاله الناس عنّي يوم غنّيت تحت شبّاكك، لقد جننت جنوناً كبر

معي، فازددت جنوناً كلّ يوم، صار جنوني مثلي شيخاً كبيراً عصيّاً على الترويض!

- أنا آسفة عن كلّ هذا الألم.
- لا تعتذري يا حبيبتي، لا تعتذري، ليتك تروين ظمأ روحي. وحدّق في عينيها وكأنّما يخاف إن توقّف عن التحديق فيها أن تختفي، وهمس لها برجاء: هل تسمحين.
- لا، لا أسمح، أنا امرأة متزوّجة، هل تفهم هذا؟
- متزوّجة؟ هل تعتقدين أن ما بينك وبين ذاك المتطفّل زواج؟ الزواج رضا وقبول، لقد سرقك منّي، أنت امرأتي أنا، وأنا رجلك الشرعيّ الوحيد، بشرعية الحبّ، بحقّ الليالي الحالكة، بحقّ الجحيم الذي يستعر فيَّ منذ ثلاثين سنة، أنت لي، كوني لي!

تتسارع أنفاسها، ترى جنون الرغبة المعجون باليأس، فترجوه: سامر، أرجوك تعقّل، أنت سيّد الروح والقلب، سيد الخيال والذاكرة، أما الجسد، فلا.

- عقلي تحت قدميك، مجنونٌ أنا بك، ظمآنٌ لمائك، فيَّ شوق محتشد منذ ثلاثين سنة، أرجوك دعيني أحتضنك فقط.

يُقبل عليها فتتراجع، يلحقها فتهرب، يحاصرها فتحتال على ذراعيه: اتقّ الله يا سامر.

- لا يحاسب الله المشنوق على رفس رجليه للشامتين بجسده المعلّق، معلّقٌ أنا من عنقي إليك بحبل الشوق منذ عقود! دعيني أنهل من قلبك شربةً لا أظمأ بعدها أبداً.
- ابتعد، أرجوك ابتعد.

انتهت بهم المطاردة إلى تلك الزاوية. ظهرها إلى الحائط، ويديه تحيطان بها، ترجوه أن يبتعد، ويرجوها ألا تقاوم!

وأفاقت الأمريكيّة في أعماقها فتوقّفت عن الرجاء، وأمرته بحزم: ابتعد عنّي، وترفع صوتها: قلت ابتعد، لا أريدك، ألا تفهم؟

انسحب، صدّته نظرتها الحازمة التي شابها الازدراء، وعاد ليجلس على الطاولة، وهبط الصمت والحزن على المكان، فلملمت ياسمين بقايا المحبّة، وجلست قبالته، فابتسم لها: نعم أفهم، ولكنّي أريدك، دعيني أكتب لك، وإذا شئت لا تردّي عليّ، يكفيني أن أرى إشارة (تمت قراءته) لأكون سعيدا، وكأنّك تلتقطين رسالتي عن الأرض!

- يمكننا أن نكون صديقين عجوزين، وفيّين لماضيهما المؤلم.
- صديقين، نعم! أنت الروح يا ياسمين، فلا تزدري حبّي لك بالحديث عن الصداقة، كوني قريبةً هذا كلّ ما أريد.
- وأنت حلم العمر، ولوعته.

عادت نسرين، فأصرّت ياسمين على المغادرة، وتشبّث بها سامر كطفلٍ يتشبّث بأمّه، مكثت طويلاً، حتى حلّ الليل، وغادرت على وعد اللقاء.

في شارع (صلاح الدين)[1] توقّفت أمام محلّ الورد، واشترت وردتين، قطعت ورقةً وهي ساهمة، قدماها تقودانها إلى المقبرة، لاكت ورقة الوردة فعقد الطعم المرّ لسانها، فابتلعت الطعم المرّ ليرمّم حزنها العميق، ومشت إلى قبر أمّها، هناك، وضعت الوردة الكاملة على قبر أمّها، ونثرت الأخرى إلى جانب القبر: وهي تهمس: ياله من اختبار نزيه للحبّ! إن سامر نسخة رجاليّة منّي، يشبهني بكامل حزني، ويبدو أنّني امرأةٌ تكره نفسها.

---

[1] أحد شوارع القدس الرئيسية.

مأخوذة بالتفاصيل، تسير بتأودة، تحملها قدماها إلى البيت، تدلف إليه، فترى العيون الزرقاء والخضراء والعسليّة تحدق فيها! تلقي التحية بلكنتها الأمريكية، فتنهال عليها الشتائم، وتمتدّ إليها الأيدي، فتدرك وقد تلقت دفعةً قويّة في صدرها أنهم كتشفوا أمرها.

وتكاثروا عليها، فأخذت تصرخ وتستغيث بالعربيّة حتى بلغ صوتها المارّين في الحارات، صرخة في أثر صرخة، وتجمهر الأهالي، أمام البيت، وأيديهم تطرق الباب طرقا عنيفا، فحضرت الشرطة والجيش إلى المكان، لتجد نفسها مقيدة اليدين، وسط مجموعة من الجنود تسحبها إلى المسكوبية[1].

بعد ثلاثين سنة تدخل المسكوبيّة، وكأنما تعبر دهاليز نفسها، ما زالت أعماقها ترتعش رعبا من اسم المكان، فكيف وقد صارت في جوفه، وقد أطبق فكيه عليها؟ أخذوا جواز سفرها، وحقيبتها، وهاتفها، وزجوا بها في زنزانة توقيف فردية ضيقة، فتكومت على نفسها، وكأنما تحتمي بنفسها من نفسها.

مضى الوقت رتيبا، فانبثق الملل من الخوف، ومن ثنايا الملل لاحت تجليات اللامبالاة، فأرخت ذراعيها عن صدرها، وتنفست عميقا، حتى تفتح قلبها عن سرور غامض بهذه العودة إلى المكان الأشد رعبا، والأعمق أثرا في نفسها، هنا تصدعت روحها، وسخن قلبها خوفا حتى احترق، وهنا فقط ستجد المرهم الشافي للقلب المحروق!

حدقت بالجدران، وهي تقول لنفسها بطمأنينة مواطن دولة كبرى: لن تطول إقامتي هنا، سأشفى من قسوة ماضيَّ هنا بانتشاله وترميمه.

---

١ مقر الكنيسة الروسية القديم في القس والذي حوله الاحتلال إلى مركز توقيف وتحقيق.

تنهمك في اجترار الحكاية، تترك قلبها المحروق يتوقد من جديد، لا ليحترق بل ليضيئ! توجعها عظامها عن ذلك الضرب المبرّح الذي تلقّته قبل ثلاثين سنة، يؤلمها ضرب وجهها بالحائط، ولا يسعفها الخدر هذه المرّة، فقلبها الذي ظلّ خدرا طوال ثلاثين سنة، يريد الآن أن يتوجّع ليشفى!

كم من الوقت بقيت في الزنزانة وحدها تجترّ أوجاع ماضيها التي سفكت في هذا المكان؟ ما من سبيل ليميز المرء الليل من النهار في هذا المكان الكئيب، بدى لها الوقت الذي مضى عمرا كاملا، أنهكتها الذكريات، فغفت قليلا، لتصحو على اسمها فتلبّي النداء، يكبّلون يديها، ويأخذونها إلى غرفة التحقيق، تتركهم يسحبونها فقد انخفض شحن ساقها الاصطناعيّة، تجلس ويداها مربوطتان إلى الخلف، تظلّ صامتة، وتتجاهل المحقّق الذي يتجاهلها، فيبادرها بعد هنيهة: كيف حالك؟

فتجيب: بخير.

لم أنت هنا؟

أنت قل لي، لم أنا هنا؟

شكلك رح اتغلبيني.

لا أغلبك ولا تغلبني، قلّ لي ماذا تريد وينتهي الأمر.

لماذا تعاركت مع جيرانك؟

أين هم خصومي في هذا العراك؟ إن كانوا جيراني، فلماذا أنا هنا؟ أليس الأجدر أن أكون في مركز شرطة، تحقّقون معي ومعهم حول العراك؟

إذا تأكّدنا أنّه ليس على خلفيّة أمنية ستتعامل معك الشرطة، والآن، لماذا تعاركت مع جيرانك؟

لم يكن عراكاً، كان اعتداءً منهم عليّ، وأنا أرفض أن تحقّق معي دون وجود محامٍ.

لا تكوني معتزّة بنفسك جداً، فإن ثبت لي أي نوايا أمنية، فإن أوباما نفسه لن ينجّيك من بين يديّ، عليك أن تجيبي بكل صدق عن الأسئلة.

رماها بنظرة حادة، قبل أن ينشغل بتقليب أوراق بين يديه باهتمام، حتى شعرت أنه نسي وجودها، فقالت: ماذا بعد؟

فيرد عليها بخبث ظهرت ملامحه على وجهه: لقد قرأت ملفك القديم، نحن لا ننسى شيئا، ويبدو لي أنك "مخربة"[١]، وسأنجح أنا في انتزاع اعترافات فشل القدماء في انتزاعها.

فترد عليه بنفاد صبر: لا يرتكب الإنسان في عمر الثامنة والأربعين، أخطاء لم يرتكبها وهو في الثامنة عشرة.

الجسد المشوّه الهشّ لن يحتمل!

****

لماذا ذهبت إلى (الكوتيل)[٢]؟

ذهبت بناءً على دعوة من جاراتي اليهوديّات.

كانوا يظنّون أنّك يهوديّة.

وما ذنبي أنا بهذا؟

لماذا لم تخبريهم عن حقيقتك؟

هل يجبرني القانون أن أبرز هويّتي لجيراني في الحوش؟

الزي اليهودي الذي كنت تلبسيه، لقد ضللتهم.

هل يمنع القانون من ارتداء ملابس يهودية دينية على غير اليهود؟

---

١ اللفظ الذي يطلقه الاحتلال للإشارة إلى اعمال المقاومة الفلسطينية.

٢ اللفظ العبري الشائع لحائط البراق

كم مضى من الوقت في أخذ وردّ؟ لم تشأ ياسمين أن تفكّر في الوقت، ولكن ظهرها صار مصدرا للقلق، تعبت كثيرا على ذلك الكرسي، واستنجدت بالخدر الذي لم يعد يأتي! وفي ذروة الوجع، أعادوها إلى زنزانتها الضيقة.

استفاقة وجع الماضي، وألم ظهرها، والوقت الغامض في الزنزانة الفردية، جعلها تشعر أنها ستبقى هنا للأبد، ضاقت عليها زنزانتها، وتلبسها الغثيان والإعياء، وهي تجتر ذكرياتها وتقاوم، لعلها تشفى.

****

خرجت ياسمين من المسكوبيّة بعد خمسة ساعات، لتجد أباها وإخوتها بانتظارها، مضوا إلى البيت معاً، استعانت ياسمين بإخوتها لتتمكّن من السير بعدما نفذ شحن ساقها، ورغم طول المسافة، أصر أبوها على العودة بها إلى بيتها.

دخلوا الحوش متسلّحين بحقّهم، فشعرت بعزّةٍ وأنفةٍ لم تختبرها من قبل.

أجلسها إخوتها في سريرها، وما أن خرجوا حتى شرعت تشحن ساقها، وسرعان ما عاد أبوها، وهو يقول: لن أتركك وحدك هنا بعد اليوم، ما دمت هنا فسأبقى هنا.

ابتسمت وهي تومئ: وهو كذلك.

واستسلمت لنوم عميق، لم تصحو منه إلا على صوت خشخشة أكياس في المطبخ، فأحكمت ارتداء ساقها الصناعية، ودلفت إلى المطبخ، لتجد أباها منهمكا في ترتيب صحون الفطور على الطاولة، كعك مقدسي لا يفقد بهجته، وفلافل كبير، وزعتر مالح، وبيض مشوي، وصحن مسبحة، وإبريق الشاي على الغاز ينثر الدفء، " ما كل هذا يا حج؟" تساءلت بمرح.

اختلاس لفرحة من بين أنياب الحزن، هيا لنفطر.

تركته يحتفي بها، فقلب الأم في صدرها يعرف أن سعادة الأب الكبرى تكمن في تركه يكون أبوها بقدر ما يحتاج قلبه ليرتوي.

جلسا متقابلين، كان صباحا دافئا، وقد استحال البيت المخيف إلى ثكنة من الأمان بحضوره، قال: هؤلاء اليهود الذين استبسلوا عليك بالأمس، كانوا يرتعدون خوفا مني كلما أتيت، كان عليك أن لا تتخفي منهم، هم الجديرون بالتخفي والخزي، هم اللصوص.

تنهدت قبل أن تقول: كنت مشوشة، وبحاجة إلى مواجهة البيت دون منغصات، ظننت أنني بذلك أتجنب المشاكل، فوقعت فيها.

حصل خير، كيف وجدت المسكوبية بعد ثلاثين سنة؟

أدهشها أنه يفهمها تماما، ويدرك ما يضطرم في صدرها، ومنحتها الدهشة جرأة المكاشفة: أشعر كأن في أعماقي دهاليز طويلة ممتدة إلى ما لا نهاية، ممرات طويلة وغرفٌ غرفٌ غرف، كل واحدة منها تنفذ إلى أخرى، فلا أزداد مع التعمق داخلي إلا تيها.

ارتشف بعضا من شايه: ليس صحيحا، أنت فقط متعبة، لا يوجد نفس بلا نهاية، ستجدين قرارة نفسك قريبا، فكلما فتحت غرفا في أعماقك، واجتزت ممرات، تكشفت لك الطريق، واتضحت، المتاهة هي الإبقاء على أعماقنا مظلمة مغلقة.

بأسى القانط قالت: يبدو منطقيا، لكنك تعرف خداع العاطفة.

بهدوء عميق: نعم أعرف أنها مخادعة، ولكني أعرف أيضا أن العقل أخدع من أعتى عاطفة.

- أتظن؟

- بل واثق.

يقشر لها بيضة، ويستدرك: وأنا راجع بالفطور من الحارة، صادفت سامرا بالقرب من باب البيت، يبدو لي أنه يحاول الشفاء أو التورط أكثر في مرض الوقوف تحت شباكك، وفي ذات الوقت، فإن يونس سيصل ليلا ليطمئن عليك بعد دخولك المسكوبية.

يتنهد: خطر لي أن أصلح ما أفسدته قبل ثلاثين سنة، وأن أمنحك الخيار الذي حرمتك منه، لتختاري بين الرجلين.

أسكتته بحدة: أبي ما تقوله جنون.

قاطعها: العقل لم يجلب لك ولي سوى الفراق والفقد والحزن، لنجرب الجنون هذه المرة.

هل تظن أنك تمنحني فرصة اختيار انتهت صلاحيتها منذ ثلاثين سنة؟ هل هذا هو السلام الذي وعدتني به؟

صحيح هذا هو السلام، أن أتركك تختارين قدرك بحرية.

ولكنني لست حرة، أنا معلقة بألف مستحيل.

لا، لا مستحيل، أنت اختاري وأنا أعدك أنني سأنفذ، المستحيل ليس واقعا، إنه في حساباتك فقط، مثلك كنت أنا قبل ثلاثين سنة، معلق بألف مستحيل، لكن المستحيلات كانت في عقلي وليست في الواقع، فقط اتركي نفسك وقرري بحرية.

تتفلت الكلمات منها، وكأنما انحلت عقدة لسانها: أبي أنا اليوم كما كنت قبل ثلاثين سنة، لا أريد غيرك، حين رفضت الزواج بيونس، لم أكن أرفضه هو، كنت أرفض الزواج، ولم أكن واثقة أبدا أنني أحب سامرا، حسنا كنت مشدودة لرسائله، أحب اهتمامه، لكنه لم يكن المشكلة، أنا فقط كنت أريد وقتا أطول بقربك، وقتا كافيا ليتوقف صدى الصراخ العظيم الذي أطلقته في

المسكوبية عن التردد في أعماقي، لقد كنت أرفض قذفك لي بعيدا عنك إلى أمريكا.

أوجعته، فأجابها بعتب بالغ: لم تكن أمريكا بعيدة عني يا ابنتي، قلبك الذي كان بعيدا! قلبك الذي جفاني وأنت هنا في شعفاط، ذراعاك اللذان لم يلتفا حولي يوم ضممتك إلي في يوم وداعك، صراخك المجنون يوم صحوت من غيبوبتك في المستشفى بعد الحادث ووجدتني، ليست أمريكا التي حالت بيننا، بل أقفال قلبك.

تسكت. فيبادرها: إذن أنت لست تعيسة بسبب يونس؟ ولا حزينة على فراق سامر؟

لا، يونس كان دائما زوجا شهما، بيننا ما هو أمتن من العشق، بيننا طفل ميت، وحزن كبير، أما سامر، فقد كنت أحب احبه لي، لقد كان كل شيء متعلق بك أنت يا أبي، أنا لم أحب أحدا كما أحببتك، حتى أبنائي، ربما لأنني فقدتك بإرادتك في طفولتي، فدخلت معك في علاقة معقدة.

ركبه الحزن، فاستدركت: أرجوك ألا تحزن، لقد عشت يا أبي، عشت رغم كل شيء، تزوجت، سافرت، أنجبت، وتعلمت، وعملت، ونجوت من حادث مميت، ورممت تشوهاتي، وتعالجت، وها أنذا عدت، كل ما في الأمر أنني لم أكن سعيدة.

ابتسم بلطف: هذا حال كل الناس يا ابنتي، نحن قلما نجد السعادة، وإن وجدت فإنها قصيرة عابرة، نحن نحيا بالرضا.

ابتسمت بدورها: صدقت، أتعرف أمرا؟ أنا أغلقت قلبي كما قلت، لم أكن بائسة بقدرما كنت جبانة عاجزة عن التصالح مع حياتي.

- والآن، ماذا؟

- الآن، لقد وعدت عمرا أن أعود، وسأظل أعود يا أبي.

سأترك البيت لشباب العائلة، لا يمكنني تركه مغلقا بين اليهود كما ترين، لكني سأوصيهم أن يحافظوا عليه كما هو، وأن يخلوه لك كلما عدت.

لا أرجوك، دعهم يفعلوا كل ما يحلو لهم، حفظ البيت أهم وأغلى من حفظ ذكرياتي، إنما سميت ذكريات لتبقى في الذاكرة.

****

قضت ليلة مع يونس في بيت العائلة في شعفاط، وليلة مع أبيها في بيت الطفولة في البيت القديمة، وعصر اليوم الثالث، لملمت حقائب السفر، وودّعت الجميع بإتقان الأمريكيات، وحفاوة الفلسطينيات، حضر إخوتها لوداعها، فارتمت في أحضانهم، وبكت قليلاً، وألقت نفسها في المقعد الخلفيّ خلف محمود، فيما جلس يونس إلى جانبه، لم تتأمّل الطريق إلى المطارطويلا.

في الطائرة، اختارت الجلوس إلى جانب النافذة، وتشبثت بها كطفل يغريه الأفق بالحلم.

انتهت